# الصوت الخافت

رواية

تأليف

ثروت حليم

**طبعة ٢٠٢٠**

حليم، ثروت

الصوت الخافت: رواية/ تأليف ثروت حليم؛- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٩ .

١٣٦ ص ،٢٠ سم

تدمك: ٧٩١٥ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

# الصوت الخافت

رواية

تأليف

ثروت حليم

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة

المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٩/١٩٢٦٠

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٩١-٥

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠٢٠

الكتاب : الصوت الخافت

المؤلف : ثروت حليم

الغلاف : عصام محمد

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

# إهداء

إهدي العمل قبل أي أحد لروح والدي الاسطي حليم

كما أهديه لوالدتي ولشعرها الأبيض ولخطوط وتجاعيد وجهها الطيب المُحب

كما أهدي العمل للناس والطبيعه والأصدقاء ولدار أطلس من اجل مساندتها وتشجيعها وخاصه الأستاذ / حسام حسن ؛ مدير الدار

مراجعة لغوية

ميرنا أشرف

# المقدمة

عندما إستعددت لكتابة هذا العمل وجدت إنه من الكذب أن أتكلم عن أشياء لم أكن أعرفها جيداً ؛ ولذلك قررت أن أكتب عن أمورٍ قمت أنا بها شخصياً ؛ فأنا واحد من ملايين الأشخاص فى مجتمعاتنا الذين يعانون من أمراض العنصرية ، وتنمر على الآخرين.

وأغلب ما كتبته فى روايتي ما هو إلا تصرفات قمت أنا بها، وكانت نتيجتها أحلام رأيتها ، ودونتها ، أو كلمات تنمُر تنمَرعلىَّ بها أحدهم ، وكانت هى أيضاً نتيجتها أحلام رأيتها أنا ، ودونتها .

والرواية هى عبارة عن عمل يضم مجموعة من الأحداث ، التى تتسبب فى عدد مماثل لتلك الأحداث من الأحلام ، والتى تنقل صاحبها من حالةٍ لحالة بطريقة تدريجيه ؛ وتُحَسن أخلاقة، وتبدلها من السيىء للأفضل .

فكتبت عن نموذج إن فكر فيه ، وتبعه أغلب أفراد المجتمع ربما نجد مجتمعاً سوياً لا يشكو فرد فيه من الآخر ، ولا يُظلم فيه أحد .

ولا يشعر أحداً فيه بصغر نفسه ، أو عدم أهميته .

كما أن الرواية تعمل على مواجهة بطلها بعيوبه من خلال ضميره ، ضميره الذي عمل جاهداً كل الجهد على رده لطريق الصواب ، وتحسين سلوكه .

وربما إن أمعنّا النظر ، والتدقيق سنجد أن البطل الحقيقي وراء الأحداث هو الضمير ، والذي عمل دون كلل ، أو يأس ، أو توقف ، هوالذي بذل كل جهوده لإتمام عمله .

إن الضمير هو العنصر الذي خلقه الله لكل إنسان ، ليُحَسّن من تصرفاته ، وسلوكياته ، وهو الصوت الذي ينادي دائماً ، وأحياناً يصرخ داخل كُل منا إن أقدم أحد على عملٍ مشين ، وهو الذي يحثنا على العدول عن الأمور غير الأخلاقيه ، أو غير الإنسانيه .

وهو العنصر ، أو الصوت في داخلنا الذي يريد أن يمنعنا عن أعمال الشر إن أقدمنا عليها ، ويحثنا على التوبه إذا قمنا بهذه الأعمال .

وهو الصوت الخافت ، والهادىء الذي نسمعه ، وننكره ، ولا نلتفت إليه في أغلب الأحيان .

هو الصوت الذي لا يخلو إنسان من وجوده داخله ، وهو الصوت الذي خلقه الله ليُعدل طريق الإنسان ، والصوت الذي عمل محل النواميس ، والكتب السماويه قبل نزولها ، وقبل تلقي

الأنبياء الوحي بها ؛ فكان بمثابة ناموساً ، ووصايا ، وكُتاباً سماوياً خاصاً لكل إنسان على حدى .

وهنا جعلت الضمير يتكلم مع بطل الرواية بصفة الجمع بينهما في كل الأمور الجيده لإثبات دوره في المهمه ؛ فيقول له مثلا: ( يجب علينا أن نُصلح / نَتعامل / نُحب / نَنظر ) ...إلخ

وهنا طريقة في الكلام يُشجِعها علماء النفس ؛أي إنه لتشجيع الآخرين للإقدام على عمل بعض الأمور يجب أن تضع نفسك معهم ، وهنا يبرز الضمير دوره كقائد ، ومن صفات القاده قيامهم بالمهام بأنفسهم .

ولقد عملت هنا على أن أظهر دور الضمائر فينا جميعاً ، في كل فرد بصورة شخصيه .

الضمير هو العنصر ، والصوت الذي نغفل عن أن نستمع إليه، أو نؤجل الإستماع إليه لأوقات لاحقه ، لا تقبل أن تأتي أبداً؛ فهى دائماً مؤجله .

العنصر الذي إن إستمعت له البشريه لربما إعتدلت أحوالنا لأفضل مما هى عليه الآن ، ولربما لما سقطت البشرية ، أو كنا حولنا به أرض منفانا إلى جنه ، وسماء يردنا الله بها إليها مرة آخرى .

●●●

# الشجرة الجميلة

مر الكثير من الوقت قبل أن أتعرف على نفسى جيداً ، كنتُ أظن إنى أعرف ذاتى حق المعرفة ، ولكنى كنت بعيداً كل البُعد عن هذا ؛ فكل ما كنت أعرفه عنى هو إنى أنا الدكتور أسامة شركس طبيب أسنان متفوق جداً ؛ فلقد حصلت على بكاليريوس طب الأسنان بدرجة إمتياز من جامعة القاهرة ، وأكاد أكون من أشهر، وأمهر أطباء الأسنان فى كل الوطن العربي ، فأنا جيد جداً فى الأمور الطبية مجال تخصصى ، أبحثُ بإستمرار ، وأُواكب كل ما هو جديد .

أُجيد أكثر من لغة ، طولى مائة واثنان وثمانون سنتيمتر، وأزنُ حوالى اثنين وثمانون كيلو جرام ، منسق فى ملابسى ، ومُرتب جداً فى كل شئ .

ولكن هناك العديد من الأشياء التى لا أعرفها عن نفسي ، أو بالأحرى لم أكُن أريد أن أعرفها ، أو أعترف بها ؛ فأنا قبلاً كنت أحمل الكثير والكثير من الطباع السيئة ، والأكثر من هذا إنى كنتُ أرى نفسى النموذج فى كل شئ ، والأفضل فى كل شئ، وبإستمرار.

ولم أكن أُدرك أن هناك أمورٌ آخرى أفضل مما أنا فيه .

لقد هبني الله مميزات ، وهبات كثيرة ، ولقد تعاملت أنا بها، وكأنها قُدراتى الخاصه ؛ فكأن عقلى الذكى من صُنعى ، أو أن وسامتى خُلقت بأصابعى .

ولذلك كنتُ أسخر من كل شئ ، ومن كل أحد ؛ فكنتُ أسخر ممن هو أقصر مني طولاً ، أو ممن هو أكثر منى وزناً ، أو ممن أقل منى علماً ، وتعليماً ، أسخرُ من الأطفال موضوع طفولتهم ، وكأنى ولدت طبيباً !

أسخرُ من العجائز ، وكبار السن أسخر حتى من الشجر إذا سقطت أوراقه أسخرُ على جميع الأشياء حتى الجمادات ، إن كانت لا تعجبنى .

مميزاً جداً فى كسب المدح ونفاق المجاملات الكاذبة ، بليداً فى كسب محبة الآخرين

فالكل يرآنى متنمراً ، وبالحقيقة أن من أسوأ ما كان فىَّ من كل طباعي السيئه جميعها ، هو إنى بالفعل شخص متنمر ، يهين كل أحد ، ولا يبالي بمشاعر أحد ؛ فمثلما أنا متفوق فى مجال عملى هكذا ، وأكثر تفوقت فى إهانة الآخرين ، والأستخفاف بهم، لم أنتبة لآحد ، ولم أهتم بأحد ؛ فأنا فى عينىّ نفسى مركز الكون ، والشخص الذى يجب أن يهتم به الجميع ، وينصتون له .

أنا ، أنا فقط يجب أن أكون موضع إهتمام نفسى ، وإهتمام الآخرين .

لأ أقبل نقداً من أحد ، ولا نصيحة ، ولذلك يبتعد الجميع عن مواجهتى بما أنا عليه ، ولا أحد يستطيع ، وإن أقدم أحدهم على قول هذا لىَّ لا يجد إلا الرفض ، والصد من جهتى على أى حال ، وفى أقل حال .

ولذلك ليس لدى أصدقاء ؛ فالجميع إما زملاء دراسة ، أو عمل ، ولا يرضى أحد الأقتراب من مُصادقتى ، وهذا لسواء طباعي.

الحقيقة إنى لم أكن أهتم بصداقة أحد ؛ فأنا عند ذاتى أكبر من أن أهتم ، أو أنتبه أنه ليس لدى صديق واحد على الأقل، وفى أسوء تقدير ؛ فأُقنع نفسي أنه لا يوجد فى من حولى من هو كفء أن يكون صديقاً ، أو مُقرباً منى ، كما أُقنع نفسى أنه لا حاجة لأصدقاء طالما يجلبون النقد.

أعودُ كل يومٍ إلى منزلى المُتسع الفارغ ، نعم فهو منزل كبير جداً، ولكنه فارغاً من كل شئ من الحياة ، ومن الأثاث ، أو الأجهزة، أو البشر ؛ فلا يوجد فيه الكثير من الموبيليا إلا ما أحتاج إليه فقط بالإضافه إلى كرسى هزاز .

لا زوجة ، أو أبناء ، ولا أحد غيرى يدخل ، أو يخرج من هذا المنزل .

تتوالى الأيام على صورةٍ واحدةٍ تتكرر كل يوم ، وعلى هذا النحو منذ أمدٍ طويل .

فى إحدى الأيام كنتُ مرهقاً ، وتركتُ عيادتى ، وأخذت سيارتى لأعود إلى البيت .

لم أكن معتاداً على أن أخرج من العيادة فى مثل هذا الوقت من النهار ، ثم أخذت طريقى إلى المنزل . كانت الشوارع التى أعتدتُ أن أسير فيها مزدحمة جداً ، ولذلك قررتُ أن أخذ طريقاً آخر، وعند مرورى من هذا الطريق كانت حركة السير فيه هو أيضاً بطيئة جداً.

رأيت هناك شاباً في مثل سنى تقريباً ... كان ممتداً على الأرض جوار الكبرى ، لكنه يقظ ، أعتدل فجأة ، وأخذ ينظر إلىَّ بتمعن شديد ، ولكنه أبعد نظره حين جاءت عينى في عينيه وألتقت أنظارنا ، لم أهتم بالأمر ؛ فربما ساكر ، أو مجنون ، ثم وقعت عيني على شجرةٍ مجردة من كل شيء من الثمار، والأوراق ذات أغصانٍ جافه ، وكأنها حطب الموقد ، يصدر من جهتها روائح كريهه جداً .

أغلقتُ زجاج السيارة وبدأت برش المعطر فيها لاعناً تلك الشجرة ، وشكلها المُقفر ، ورائحتها قائلاً : أين مسؤلى الحي وأين دورهم لماذا لا يأتون ويقطعون مثل هذه الأشجار؟

عدتُ إلى البيت ، أخذت حماماً ساخناً ، وتناولت وجبه كنت قد أعددتُها لنفسى ، وشربت فنجان القهوه ، ثم علوت سريرى لأنام، فأنا من الناس الذين يشربون القهوة وينامون .

ذهبت في النوم سريعاً دون إرهاق التفكير ، والسهر ، والأمور التي تشغل رؤوس الناس قبل نومهم .

وفي منتصف نومى رأيت وكأن أحداً لم أرى وجهه ولم أستطع أن أُحدد أكان واحداً ، أو أثنان ، أو أكثر؟!

لا أعلم العدد ، ولكن شعرت كأنهم يتجاذبون يداىّ وقدماى كل طرفٍ فى إتجاه وكأن أصابع قدماى تمتد طويلاً لتصبح جذورُ لشجرةٍ ، وأصابع يداى ، وشعر رأسى أمتدوا بدورهم ليتحولوا أغصان ، وأن فمى نقرهٌ فى منتصف الشجره يدخل ويخرج إليها غراب .

ما هذا ؟!

لقد تحولت لشجرةٍ ، وأى شجره !

أنا تحولت للشجره التى ساءنى منظرها ، ورائحتها .

آآآه ما الذي أتى بى إلى هنا ؟

ماذا فعلت لأصبح هكذا؟!

ياليتنى ما رأيتك . ياليتنى ما مررت من هذا الطريق . ياليتنى أحتملت التعب وبقيت في العيادة ؛ لأعود آخر الليل من طريقى المعهود . كيف أتخلص من هذا الآن ؟

حاولت بكل فكرة ، وطريقة أن أرفع قدماى ، ولكن من الواضح أن جذورى كشجرةٍ عتيقةٍ قد إمتدت لأبعد نقطة ممكنه في الأرض من تحتى . هل سأبقى هكذا لبقية عمرى ؟ أريد أن أعود ...

أتحدثُ إلى الماره ، لا أحد يسمعنى ؛ ولا إجابة !

حلول فصل الخريف يُعنى، لا ثمر في أغصانى ، ولا ورق . أنا جائع جداً ، لا يوجد شئ لأتناوله ، ولا أعرف أن أستقى غذائى من التربة ، فأنا لم أكن شجره من قبل .

كان من الصعب أن ألقى نظرةً على الجزء السفلى من جسدى، ثم حاولت وتمكنت بصعوبه أن أراه ، وكان هناك شاباً مخموراً يفك سرواله ليتبول خلفى .

لا لا أرجوك إبتعد ، أذهب لمكانٍ آخر .

ياهـذا ، لا تفعـل ذلـك أرجـوك ، حاولـت ولكنـه لـم يسـمعنى، وفعـل فعلتـه المُهينـه .

أنه لحقير حقاً ، كيف أستطاع أن يفعل هكذا بى!

فيمـا أُفكـر ! إسـتطاع أو لـم يسـتطع ، لقـد فعـل مـا فعـل ... كيـف أتخلص مـن هـذه الرائحه الآن ؟

سـأحاول على الأقل أن أبتعد عن هذا المكان .

ولكن كيف سـأبتعد؟

الجذور ، آه الجذور!

لا فائـدة مـن محاولـة الأبتعـاد سـأبقى ، وأمـرى إلـى اللّه سـأبعد أنفـى ، وأتنفـس في إتجـاه آخـر.

مـر الليـل ، وأتـى الصبـاح ، وحضـر إلـى محلتـى مجموعـة مـن الأطفـال يلعبـون ، ويلهـون ، يبـدو وكأنهـم هاربـون مـن المدرسـة .

أخرجـوا حبـالاً ، وبـدأوا يربطـون أطرافهـا في يداى ، أقصد أغصانى، ثـم بـدأوا يصنعـون الحبـال المربوطة أرجوحه يتأرجحون عليها .

إن الأمـر مؤلـم حقـاً ... الحبـال تجرحُنـى ، ولا طاقـة لأغصانـى علـى إحتمالهـم ولكنهـم لعبـوا حتـى أنهكهـم اللعـب، وأخيـراً قـد ذهبـوا عنـى .

إذهبوا ، إذهبوا ،ولا تعودوا مره أخرى .

قضى ساعتان من الوقت إلى أن مر جوارى رجلٌ يبيع البطاطا المشويه بأفران الخشب ، أقترب مني وبداء يتفرس فىَّ بعمق ، ثم قال بلهجة عاميه : « والله حلوه الشجره دى ، وخشباتها ناشفين» .

ثم ذهب إلى عربته ليأتى حاملاً في يده آلهٍ ثقيلهٍ ، وحاده «بلطه» ، وبدأ فى تقطيع كل ما يمكن تقطيعه ، وكل ما تستطيع عربته أن تحمله من الاغصان ، وأخذه معه ، وذهب ، وتركنى بلا غُصنٍ واحدٍ .

الحمدلله الآن على أسوأ تقدير ... لا مكان لدى للأطفال ليتأرجحوا عليه .

مرت عده أيام على هذا الوضع الليل خلف النهار ، والنهار خلف الليل ، إلى أن أتى فريق من رجال الحى ، ووضعوا منشاراً كبيراً فى أسفل نقطة ممكنه فى جذعى، وبدأوا فى قطعه .

استيقظت متألماً وصارخاً لا جزعى لا .

تأرجحوا كما تشاءون ، أو إقطعوا الأغصان ، لكن جزعي لا .

استيقظت لأنظر أولاً إلى أصابع يداى ، وقدماى ، أنا كما أنا ، أنا لست شجرة ؛ أنا سليم ، وكل شئ في مكانه ساعتى ،

ونظارتى ، أتنفس بسرعه كالذى توقف فجأه بعد أن قطع مسافه كبيره من الجرى .

وثبتُ من على سريرى أتجول في المنزل يميناً ، ويساراً ، وفى كل الأركان ، وكأنى كنت محروم من المشى .

أتفقدُ جسدى ، وقدرتى على المشى ، والترجُل !

بدأت أتحرك في بدايه الأمر حركات ميكانيكية متساويه ومُتقطعه كآله ، أو كطفل يتعلم السير ، ولا أعلم كيف ، أو لماذا تحركت بهذه الطريقة .

أتفقد كل شئ في المنزل ، وكأن شيئاً لم يكن !

ما هذا الحلم ، وما هذا الشعور الغريب الذي ينتابني . أشعرُ بالإشتياق للمرور من هذا الطريق مره أخرى ؛ لأتفقد حال تلك الشجرة الغريبه .

أرتديت ملابس ، وخرجت لأستقل سيارتى فجراً ، وذهبت مُسرعاً إلى الشجرة ، ووقفت خارج السيارة أنظر لها ، مر أكثر من ساعه ، وأنا واقفٌ أتأمل منظرها ، وأتفقد أغصانها غصن غصن .

لم أشعر بأى تعب ، أو بالوقت وهو يمر ، أقف أمامها فقط . أتذكر أجزاء من الحلم ، وأضحك ، وأشعُر ، وأتنهد ، دون اشمئزاز من رائحتها ، أو شكلها المُقفر .

ثم يفصلنى عن التفكير ، والتذكر ، والتأمل في كل هذا صوت غناء شاباً مخموراً آتياً من على بعد حوالى خمسين خطوه وكان يغنى أغنيه غريبه يقول فيها : « المايه زياده أوى ، وأنا جاى أفضيها ، كل ما أفضى مايتى يا دينا تمليها « .

وكان يغنيها بنغماتٍ متقطعه ، وإبتدأ يفك سرواله ، وهو يقترب أكثر ، وأكثر من الشجرة ، بدأت صورته تتضح في عينى، إنه هو نفس الشاب المخمور الذي رأيته يتبول خلفى ، عندما حلمت إنى أنا الشجرة ، ولم أستطع أن أجعله يتوقف .

الآن يجب أن أمنعه ، الآن يجب أن أتصرف في هذه المسألة، الآن فقط عرفت أن لا ذنب للشجرة في تلك الرائحه الكريهه .

أقتربت منه ، وجررته من ملابسه إلى موضع خلاء لا شجر فيه ، ولا نبات ، تحرك معى بصعوبه ، بسبب جسده الذي أثقله الخمر ، وعدم رغبته في المُضى معى، ولكنه فى النهاية تحرك .

أعجبه المكان الخلاء الذي أخذته إليه ، حيث أقنعته إنى قرينه الروحى ، وإنى أرشدته إلى هذا المكان حتى لا تكشفه

الشـرطة ، لقـد أقتنـع بعـد مجهـودٍ كبيـر ، و إتفـق معـى بعـد عنـاءٍ طويـل .

بجـوار عربـة شـرطة تركتـه يفعـل فعلتـه ، ووقفـت أراقـب مـن بعيـد؛ لأتأكـد مـن إنـه تم القبـض عليـه ؛ حتـى لا يعـود يتبـول جـوار الشـجره مـرة أخـرى .

عـدتُ في إتجـاه سـيارتى ، عنـد الشـجره ، وعندمـا إقتربـت منهـا سـمعت صـوت ضحـك ، وركض مجموعـة مـن الأطفـال ، وكان الصُبـح قـد بـدأ يشـرق ، أقتربـت منهـم قبـل أن يقتربـوا من الشـجره، وأعطيت كل واحـدٍ منهـم عشـرون جنيهـاً مقابـل عودتهـم إلـى المدرسـه، وآلا يقضـوا يومهـم خارجهـا .

ثـم عـدت إلـى البيـت لأنـام قليـلاً ، وأُتابـع بقيـة يومـى . ذهبـت إلـى عملـى ، ومنـه إلـى دعـوه غـداء ، وفي طريـق عودتـى ، مـررت مـن الطريـق الـذي فيـه الشـجره وكان يسـير إلـى جـوارى بائـع البطاطـا الـذي حلمـت بـه يقطـع أغصانـى ؛ ليسـتخدمها كحطـب لفـرن البطاطـا، أقتربـت منـه وفتحـت زجـاج شـباك السـيارة ، وأصتنعـت حـواراً معـه سـألته فيـه ، لمـاذا يرهـق نفسـه في أن يعبـر ببضاعتـه مـن شـارع يعـج بالسـيارات ؟

وأنه يجب عليه أن يمر من طريق السوق والمشاه ؛ فسيمكنه فى وسط المشاه أن يسلك الطريق على راحته دون إستعجال وكلاكسات السيارات ، أقتنع الرجل بعد أن أشتريت منه كمية كبيره من بضاعته ؛ لتكون موده بيني وبينه ؛ لأجد سبيل لأقناعه .

مر اسبوعان ، وأنا لا استطيع أن أعبر في ذهابى ، وإيابى من أى طريق سواه ؛ فكأنى أطمئن على نفسى كلما رأيتها بخير ، فقد ولِدت مشاعر غريبه في داخلى تجاه هذه الشجره ، وأشعر أنى أصبحتُ مرتبط ببقائها سليمه .

تعلقتُ بها أياماً كثيره أمر لأراها ، وأطمئن على نفسى، واهماً نفسى بما كنت قرأته عن بعض الأحلام ، وتفسيراتها ؛ فبعض رواه ، ومفسرين الأحلام يقولون ، إنه إن حلمت مثلاً أن أحداً من الأموات آتٍ ليزورك ثم أخذك معه ، أو إن حلمت بسبحة تنفرط حباتها ، أو شئ متعلقاً بك يموت ، أو ينقطع ؛ فهذا يعني حدوث أمراً سئ لك كحادث ، أو مخاصمه ، أو موت ، إلى أخر كل هذه الأمور .

وأنا قد شعرت بالألم حقاً ، عندما قطع بائع البطاطا أغصانى في الحلم ، شعرت إنى أُقتل ، وقتما كان عمال الحى يقطعون جزعى، ولذلك أخافتنى تلك الأوهام على نفسي بالطبع، ليس حباً للشجر ، أو تعلقى بالطبيعة ، بالطبع لا ...فأنا لا أهتم بكل هذا ، لكن شعور سئ قد تملكنى وسعيت للتخلص منه .

عـدتُ لحالتـى الأولـى سـريعاً جـداً ، أخطـو علـى الأرض وكأن لا غيـرى ، وأسـير وسـط النـاس شـاعراً إنـى أفضلهـم، وأحسـنهم فـى كل شـئ ، أتملـق الجميـع بنظـرات التكبـر ويتملقنـى الجميـع بإسـتياءٍ وتأفـف .

لـم أتذكـر موضـوع الشـجرة ، لـم أتعلـم مـن الحلـم ، ولـم أفهـم الـدرس ، كان بالنسـبةِ لـى مجـرد حلـم ، وحالـه عابـره ، قـد مـرت ، وإنقضـى أمرهـا ، لـم يعـد مـن الضـروره التفكيـر فيهـا .

لا أنكـر أن مـن تعاملـوا معـى في تلـك الأيـام ، قـد لاحظـوا فـىَّ بعـض التغيـرات ، والشـرود ، والسـرحان ، ولكنـه كأى وقـت مضـى ، والآن عـاد كل شـئ لشـكله وصورتـه الأولـى.

عـدتُ لا أهتـم إلا بمظهـرى ، وتأنُقـي ، وأنتبـه لطريقـة كلامـى، ومشـيتي ، وعطـري ومحفظتـى ، حزامـى وحزائـي وملابسـى وسـاعتى ، فأنـا أهتـم أن يكـون الحـذاء والحـزام والمحفظـة وحـزام السـاعةِ مـن نفـس اللـون.

أُحب أن أظهر بهذه الصورة ، وأُحب أن يلاحظ الجميع هذا .

كمـا أنـى أُرتـب شـعرى عندمـا أقـوم بتصفيفـه الواحـده جـوار الآخـرى في صفـوف مُرتبـة ، ومُنظمـة ، أهتـم كثيـراً بهـذا.

أخطـوا علـى الأرض جاعـلاً أقدامـى إلـى الأمـام فـى شـكل منتظـم، ظهـرى مستقيم ، رافعـاً أكتافـى ، و ذقنـى إلـى فـوق ونظـرى إلـى الأمـام.

لا يسـألني أحدهـم عـن أسـمي وأقولـه مجـرداً ، بـل يجـب أن أضـع لقبـى أولاً ؛ لتكـون الأجابـة ، أنـا الدكتـور أسـامه شـركس .

لا أُحـب أن يناديـنـي أحدهـم بـدون لقبـي ، حتـى زملائـى ، ولا أقبـل أن يوقفنـى أحـد ليسـألنى شـيئاً مـا ؛ فيجـب علـى مـن يريـد أن يتحـدث معـي ، أن يسـير إلـى جـوارى شـيخاً كان ، أو شـاباً ، رجُـلً ، أو إمـرأة .

ولا أقبـل أن أنتظـر أحـد لدقيقـة واحـده تأخيـر ، وعُـدت أنـا كمـا أنـا .

وتتوالـى الأيـام ، حتـى خرجـت مـن العيـادة يومـاً ، فـور سـماعى صرخـات تُـدوّى في مبنـى عيادتـى الخاصـه .

كان صـوت الصـراخ يصـدر عـن مجموعـة مـن النسـاء اللاتـى ينُحـن علـى أخوهـن الـذى توفـى للوقـت ، كان شـاباً فـى الثلاثيـن مـن عمـره ؛ فخرجـت مـن العيـادة ، وأنـا مُسـتاء جداً مـن صـوت الصـراخ، ذاهبـاً إلـى إحـدى المطاعـم الشـهيره ، تناولـت العشـاء بـه ، وأخـذت قهوتـى ، ثـم عُـدت إلـى البيـت لأنـام .

●●●

# سقط كل شيء

بدلت ملابسى ، وعلوت سريرى ، وغرقت في النوم سريعاً ، وبينما أنا نائم إنقسمت إلى اثنان ، ورأيت الاثنان يخرجون من بعضهم ، فكان واحد منهم لا يتحرك ، والأخر يُجاهد ليخرج منه.

وبعد إنفصالهم وقف واحد فى زاوية من زوايا الغرفه، والآخر مُمدد على السرير ، والذى يقف في الزاوية يرى النائم على السرير، أما النائم لا يستطيع أن يرفع رأسه ، أو يُحرك طرفً من أطرافه ، أو حتى يفتح أجفانه.

الواقف في زاوية الغرفه يقترب من النائم ، ويحاول أن يلتصق به ، أو يدخل إليه مرة أخرى ، ولا يعرف طريقاً للدخول ، ظل يحاول طوال الليل أن يدخل إلى الأخر ، باتت كل المحاولات فاشله، فهو بالكاد يستطيع أن يقترب ، ولكنه لا يستطيع أن يحرك أصغر أطرافه ، لم يتعب قط ولكنه مل من المحاولات التى لم تجدِ لها سبيل .

أقترب منه ، ومدد نفسه إلى جواره ، وأغمض عينيه لعله يعود، ويلتحم به ، ظل يتقلب إلى جواره لمدة ساعتين .

أنا أرى المشهد ولا أفهم شئ ، الأثنان أنا ، أحدهم يفرُك طوال الليل والأخر لم يحرك ساكناً .

أشـرق الصبـاح علـى هـذا الوضـع ، وبـدأت أجـراس الهواتـف المحمولـه في الرنـين .

يقتـرب إحـداى ، وهـو الـذى لـم يتوقـف عـن الحركـه طـوال الليل ، ويتحـرك فـى الغرفـه مـن مـكانٍ لآخـر مـن الهواتـف ويحاول أن يمسـك التليفونـات ، ولا يسـتطيع ، يحـاول أن يُجيـب ، ولكـن لا طريقـة .

في الوقـت ذاتـه دق جـرس البـاب ؛ فذهـب ليفتـح ، وهـو يـرى مـن فـى الخـارج ، وكان بـواب العمـارة الـذى أحضـر الجرائـد كعادتـه تنفيـذاً لأوامـرى .

ولكنـه مـل مـن دق الجـرس ، وكنـت بالداخـل أراه ، ولا أسـتطيع أن أفتـح لـه ، أضـع يـدى علـى مقبـض البـاب ، ولا أمسـكه أحـاول أن أُتحـدث إليـه ، لكنـه لا يسـمعني فقـال : « أنـا هنـزل ولما يصحـى يبقـى ينـده علـىَّ»

خرجـت إلـى البلكونـه أحـاول أن أنـادى لـه ، ولكنـه لا يسـمعنى أشـير بيـداى ، ولا يرانـى .

لـم أكـن أفهـم شـئ ممـا أنـا فيـه ؛ فلـم يسـبق لـى أن قـرأت ، أو سـمعت عـن شـئ كهـذا .

دخلـت إلـى المطبـخ لأصنـع قهوتـى ، ولكنـى لـم أسـتطيع أن أرفـع الأوانـى ، أو أُحركهـا مـن أماكنهـا .

مـر اليـوم كلـه ، وأنقضـى النهـار ، وحضـر الليـل ، ولـم تتوقـف الهواتـف عـن الرنـين ، ولـم يفـرغ البـاب مـن دق الأجـراس

أقتـرب الفجـر ، وأشـرق صبـاح اليـوم الثانـي ، تكـررت الجـره كاملـةً.

حضـرت سـكرتيرة العيـادة إلـى البيـت لتبليغـى بالمشـاكل التـى نتجـت عـن غيابـي ، قامـت بالأتصـال كثيـراً ، وطـرق البـاب ، حاولـت بـكل جهـدى أن أُجيبهـا ، ولـم اسـتطع ، دخلـت للآخـر المُمـدد علـى السـرير ، أحـاول مـرة أخـرى أن أجـد سـبيلاً ليقـوم لعلـه يسـتطيع ، أو يُجيبنـى ، و لكنـه لـم يبـدِ أى رد فعـل .

عـدت إلـى البـاب وجـدت السـكرتيرة تتصـل بأختـي ، وأخـى المتزوجـين لتسـألهم عنـى ، وقـد أخـذت أرقامهـم مـن إحـدى جاراتـي ، كانـت زميلـة أختـى في الدراسـه ، والتـى خرجـت مـن شـقتها في هـذا الوقـت مصادفـة.

حضـروا في الحـال بعـد أن حاولـوا هـم أيضـاً الأتصـال بـى، ولـم يجـدوا إجابـة .

إتخـذوا قرارهـم أخيـراً بكسـر البـاب ، أحضـروا نجـاراً ، ودخلـوا يفتشـون في كل الغرفـات ليجدونـي نائمـاً علـى السـرير حاولـوا تحريكـي، ولكنـى بـلا حـراك ، والغريـب أن الجميـع أنتبـه للمُمـدد علـى السـرير ولـم ينتبـه أحـد للآخـر الواقـف إلـى جوارهـم .

ثم قالت السكرتيره « يصدر منه رائحة كريهه ، يبدوا أنه قد مات له يوماً كاملاً ، ويبدوا أيضا أن برودة التكيف هي التى بردت جسده ولم تصدر رائحته قبل أن نُحركه»

أستمع أنا إلى هذه الكلمات ثم أقول : «موته تاخدك يا بعيده»

والجميع يتحدثون عن إحداى ، وهو المُمدد على السرير ويرونه، ويقتربون ، ويبتعدون عنه ، وأما الآخر الذى يتحرك ويتكلم لم يراه ، أو يسمعه أحد كما أنه أيضاً يرى الجميع ، ويسمع الجميع، ولكنه لا يستطيع أن يلمس أحد ، أو يشعر بأى جسد .

فهمت الآن أنا قد متّ وما هو على السرير جسدى ، أما الآخر فهو روحى التى من فرط كِبرها ؛ تآبى أن تذهب قبل أن ترى كل شئ ، وقبل أن تطمئن على مراسم الدفن .

حضر الطبيب ليكتب تقرير الوفاة ، والسماح بإستخراج تصريح الدفن .

الطبيب : أين المتوفى

أنا: متوفى ، متوفى إيه أسمي الدكتور أسامه ، وكأن أحداً لم يسمعني .

أصطحبه أخي إلى الغرفه ليخرج الطبيب ، وأخى مُسرعين ، ثم كتب الطبيب تقريره ، ومضى مُسرعاً .

ثم ذهب أخي لأعداد تصريح الدفن ، وإرسال الحنوتى. حضر الحانوتى ، ومعه صبيانه من مغسلاتيه ، ومكفناتيه يحملون بين يديهم الأكفان ، والخشبه .

الحانوتى : فين ولمؤاخذه الأمانة

أختى : أمانة ! أمانة إيه ؟

الحانوتى : ولمؤاخذه الجثة ، الميت .

أنـــا : كمان بقيت جثة يا متخلف أنتَ ، أسمى الدكتور أسامه شركس .

أحضروه ، وصبيانه إلى غرفتى ، وإقتربوا بأكفانهم التى يحملونها على أيديهم .

أغلقوا الباب عليهم ، وأنا معهم بالداخل ، وأخذوا يتأففوا، ويخلعوا ملابسى ، ويغسلوا جسدى بالمياه بسرعة شديدة ، وهم مكممين أفواههم ، وبدلوا ملابسى بالأكفان، ووضعونى فوق الخشبة التى كانت معهم وخرجوا قائلين لمن فى الخارج : « الميت جاهز» .

حملوني ونزلوا بى ؛ فإبتدأت أسمع كل الصفات التى تشير لى، أو تصفنى إن الجثة ، والميت ، والمتوفى ، والخشبة ، والأمانة ، والمرحوم ، إلى أخره ، ولم ينطق أحدهم اسمى .

علمت الآن أن اسمى ، ولقبى ، وصفتى قد سقطوا ، قد سقط كل شيء ، لم أعد إلا جزءٍ من ماضى ، وأنا الآن غير موجود ، وكل ما يُقال عنى يسبقه كلمة كان !

وبعد أن إنتهى اليوم ، وتم دفنى ، وإنتهت مراسم العزاء جلس أخى ، وأختى مع بعضهم ، وأبنائهم في بيتى ، وروحى تجلس فى نوع من النِمكيه ؛ تراقب كل أحد وتستمع لجميعهم ، وهم ينظرون كل منهم للآخر ، وينتظرون من يبدأ بالكلام .

حتى إفتتح ابن أخى الكلام ، وكان شجاعاً جداً في أن يضع الحوار في إطاره السليم ؛ ليُخرج من كل واحدٍ ما في قلبه ، وقال لوالده : « بابا إحنا هنعمل إيه في الشقه دى والعفش اللى فيها» .

ثم قالت أختى بعد أن نظرت لأخى : « أنا هاخد العربية وأسيبلك الشقه تجوز أبنك فيها ، واللى في البنك ، والعيادة نصفيهم ، و بالنص» .

الآن كل ما يهم أخوتى من ذكراى هو منزلى ، وعيادتى، وسيارتى ، وحسابى في البنك .

فأجابها أخى : « الكلام ده سابق لوقته أخونا لسه ميت ، وإحنا بنفكر في ميراثنا منه !

ده كان أخونا برضو» .

والآن أيضاً حتى صفة الأخوية قد سقطت وأصبحت من الماضي « كان أخونا» .

فأجابته أختى : « كان تنك ، ومتكبر ، وطول عمره شايف نفسه أحسن من الكل ، ومحدش زيّه ، وعمره ما حاول يحسن علاقته بأي حد ، أو يعتذر عن غلطه فى حق حد ، أو يهتم بحد غير نفسه» .

ثم قال أخى : « نروَّح ، وكل واحد يستريح في بيته ، اليوم كان طويل ، ومُتعِب ، وبكره ، أو بعده نبقى نشوف الحاجات دى ونخلصها كلها» .

وقاموا ليذهبوا ، بعد أن أحضروا النجار ؛ ليصلح الباب، وأغلقوه ، ثم ذهبوا .

دُفِنت الجثة كما كانوا يدعونها ، وبقيت روحى وأمسيت أتنقل في الشقة ، من مكانٍ لآخر ؛ أفكر في كل ما حدث.

أدركتُ الآن إنى لم أكن موضع إهتمام أحد ، لم أكن مركز الكون .

أدركتُ إنه حين يموت أحد ، أياً كانت صفته ، فهو يتحول لجنازة ، وخشبة ، وجثة ، ولمؤاخذه أمانة ، ومتوفى ، وميت ، وكان .

تسقط كل الصفات ، والألقاب ، والأسماء ، ونصبح جميعنا متساوين فى الاسم ، والصفة ، حتى في نفس الحيز الصغير ، الذى نأخذه جميعنا من الأرض ، حين نُدفن .

وإن كان إخوتى يقولون عنى متكبر ؛ فما يقول عنى بواب العمارة ، وسكرتيرة عيادتي ، وعمال المركز الطبي الذى أعمل به ، وكل من يعرفنى ، ألعل الجميع لا يذكرون عنى شيئاً جيداً ؟!

أصبح تفوقى في مهنتى ماضى ، وكل ما تبقى منى يرثه غيرى، حتى بدون الترحم علىَّ ، أو ذكر حسناتى .

نسيت أن أذكر لكم أن أبن أخى قد دخل إلى غرفتى؛ ليفتش فيها عن أشياء قد أعجبته سابقاً كساعاتى ، ونظراتى ، وأحزمتى، وأحزيتى ، وقمصانى ، وعطورى ، جميع أشيائى الخاصه إلى أن ملأ حقيبةً من ملابسى ، وأخذها معه .

مر كل هذا علىَّ فى حلمٍ خلال ساعات نومى طوال الليل ، ثم إستيقظت على صوت المنبه ، الذى أضعه دائماً على الكومودينو فى غرفة نومى إلى جوار سريرى .

أتحسس جسدى ، وأخرج أنادى البواب ؛ لأتأكد أنه يرانى ، ويسمعنى ، ثم أعاود الدخول إلى المطبخ ؛ لأصنع قهوتى لأتأكد إنى أستطيع الإمساك بالأوانى ، وأرفعها ، وأُحركها ، وأحاول بكل جهد أن أتأكد من لمسى للأشياء ، وإحساسى بها ، وتحريكها ؛ فكُنت كلما أمسكت بشئٍ حركته يميناً ، ويساراً ، ورقصت به .

كما إنى تأكدت من تاريخ اليوم ، أنا موجود ، ومازلت حى لم أمت ، ما كل هذا ، ما الذى رأيته ، إنه كابوس ، نعم كابوس مُرعب .

ثم دخلت إلى غرفتي أتأكد من وجود النظارات، والساعات ، والأحزمة ، والأحزية ، وأن كل الأشياء فى أماكنها .

ثم خرجت أسأل البواب عن السيارة ، فأجابنى قائلاً : «ماهى مبيته ف الجراج مكانها من إمبارح يا دكتور» . جلست على الكرسى الهزاز ؛ لأفكر طويلاً ، وأتذكر كل ما دار فى الحلم، وهل من الممكن أن تكون الحقيقة بهذه الصورة .

وهل أتحول من الدكتور أسامه إلى الجثة ، ومن الأخ إلى المتكبر، والميراث ، والميت ، هل لم أفعل شيئاً يجعلهم ينطقون أسمى بشئ من التوقير حين أموت ، ألم أفعل ما يحمدنى أحد عليه ، أو يذكرونى بالخير لأجله؟! وهل يريدون ثروتى ، وميراثى أكثر منى ؟

ثم قمت ، وبدلت ملابسى ، وذهبت إلى البنك ، وسحبت مبلغاً من المال ، وخرجت لأقضى يومى كله فى التسوق، إشتريت ساعة تشبه ساعتى ، ونظاره ، وحذاء لأبن أخى ، ومجموعة فساتين لأختى ، وأبنتها ، وبدلتان لأخى ، وقمت بطلب الآكل من مطعم فاخر ، ودعوتهم على العشاء ، وأعطيتهم الهدايا ، وكنت كلما أعطيت أحدهم شئ ، أقول له فى داخلى « وإياك أن تنظر، أو تطمع في شئ من مقتنياتى مرة أخرى» .

شكرنى الجميع ، وسط نظرات التعجب ، التى يتبادلها بعضهم البعض .

تعهدت منذ ذلك اليوم أن أصنع بينى ، وبينهم حبلاً متصلاً من الحب ، والمودة ، وأن أُذيب كل الخلافات التى نتجت عن تكبرى عليهم ، وتجاهلى إياهم .

وبدأت أتعامل مع البواب بلطف ، وإبتسامة ، وزودت راتب السكرتيره .

كما دخلت إليها ، واضعاً كمية من العطر ليس قليله؛ لتبتسم وهى تقول أن رائحة العطر الذى أضعه مميزة جداً وجميله .

فأضحك ، وأقول في داخلى « يا لعينه كنتِ بتقولى طلعت منه ريحه كريهه» .

لقد أخافنى ، بل أرعبنى واقع الموت ، وأدركت أن أول ما يسقط مع الأنسان عند موته ، هو أسمه ، ولقبه ، ولن يتبقى له إلا أن يترحم عليه أحبائه ، أو يبحثون عن ميراثهم منه يوم موته، وأنه لن يتبقى لنا إلا المحبة، وبعض الكلمات ، بعد سقوط الأسم ، كما أنك تصبح على غفلةٍ مجرداً من كل شئ ، من ملابسك، وصفاتك، وخبراتك ، وكل شئ ، وتصبح مجرد جثة، مجرد ميت، أو صندوق ، ولو ترقيت سوف تصبح المتوفى، أو الفقيد ، أو الراحل ، أو المُنتقل للرفيق الأعلى ، أو الأسفل على حسب أعمالك، أو محبة المُتكلم .

ولن يتبقى لنا سوى كلمة كان ، كان أبونا ، أو كان أخونا ، أو صديقنا ، أو أياً من كان ؛ فحتى صلة الرحم تسقط بالموت .

الأخوة ، أو الأبوة ، والأمومة كلها صفات تسقط بالموت؛ فمهما فعلت ستصبح في يوم من الأيام «كان» فأختار أى كان سوف تكونها .

فالموت واقع ، وأمراً لا مفر منه ، وإن أنكرته ، أو أجلت فكرته؛ فربما يأتي بغتتاً ؛ فهو غير محدداً بموعد يناسبنا نحن بل يأتي بحسب الموعد المناسب له .

غيـر أنـه لا يخبـر أحـداً بقدومـه ، هـو يأتـي متـى شـاء ، ومتـى أراد ، ودون اسـتئذان ؛ يأتـي في كل الأوقـات ، والسـاعات ، والأعمـار غيـر مبـالٍ بمواعيدنـا المناسـبه ، أو غيـر المناسـبه ؛ فهـو يأتـي بحسـب مـا يناسـبه هـو .

يأتـي وقتمـا تنتهـى السـاعة الرمليـه الخاصـه بنـا ، ويأتـى عندمـا تنتهـى ؛ فترتنـا المحـدده للإجابـة عـن ذلـك الإمتحـان ، ولا يمكـن تأجيلـه، أو الحصـول علـى وقـت أضـافي ، أو وقـت بـدل الضائـع .

نحـن نحصـل علـى فرصتنـا كاملـه ، ووقتنـا كامـل ، ولذلـك حينمـا ينتهـى الوقـت فـلا طريقـة لإسـتعطافه ، ليمنحنـا فرصـة آخـرى ، أو يُعيـد إلينـا ورقـة الإجابـة بل تُرفَـع الأقـلام ، وتنتهـى الأعمـال ، وتبـداء فتـرة الحسـاب ، ولا عمـل ينفـع بعـد ذلـك ، ولا صدقـة ، أو صـلاه .

قـد صـدق القائـل أنـه يأتـي مثـل لـصٍ في الليـل ، ومـن منـا يسـتطيع أن يعـرف متـى يأتـى اللـص لينهـب بيتـه ؛ فجميعنـا ننـام ونحـن متأكدون بأننـا سـنصحوا ، وجميعنـا نعطي مواعيـد ، وإتفاقات رهنـاً بالوقـت ، والعمـر دون أن نذكـر ، أو نفكـر هـل سـنُعطي العمـر لكـى نفـي بتلـك المواعيـد ، والإتفاقـات .

المـوت ... ومـن اسـتطاع أن يوقفـه ، أو يؤخـر قدومـه فـإن كنـت وأنـا طبيـب أسـنان محتـرف لا اسـتطيع أن أوُقـف تسـوس الأسـنان إلا بخلـع التالـف منهـا ، حتـى لا يتلـف الأخريـن ؛ فمـن يوقـف المـوت ؟!

إن الموت هو طريق الأرض كلها ومن عليها ، وليس العيب فيه بل العيب فينا إننا نتناساه ، ونتجاهل أمره أو نؤجل التفكير فيه، والعمل من أجل لحظة حضوره .

●●●

# ساميه شركس

عدة أسابيع قد مرت بطيئة جداً على التخوف من حلم الموت، وفكرته ، كانت تجربه مخيفة ، وقاسية فعلاً ولكنه درس تعلمته ، وأصلح علاقتى بأخوتى ، وابنائهم، والبواب ، والسكرتيره .

وعندما بدأت الأمور ، والأفكار ترجع إلى قوالبها ، وقوامها المُعتاد ، وبدأت أتوقف عن التفكير في الموت ، وشعوره ، والخوف منه ؛ جاءت التجربة التاليه سريعاً جداً .

ولا شك أن أى أحدٍ منا عندما يرى شخصاً سميناً جداً ، يبداء فى إلقاء اللوم عليه .

لماذا لا يمارس الرياضه لتقلل وزنه ، أو يقوم بتتبع نظام غذائي معين ( رجيم ) ، أو حتى يقوم بعمل أى جراحه كعمليات تدبيس المعدة ، أو غيرها ، المهم هو إننا جميعاً نُلقى اللوم عليه ، وكأنه هو من فعل هكذا فى نفسه ؛ ليصبح بهذا الحجم ، والوزن، وأن عليه أن يحل هذه المُشكله .

والحقيقة إنى بكل ما بى من تنمر ، وأصطياد للأشياء ، والأمور لأجد ما أتحدث عنه ، أو ألوم به أحدهم ؛ لم أكن إلا واحداً من كثيرين ممن يلقون باللوم على أحداً إذ كان سمين بهذا الوصف ، طارحاً أمامهم كل الحلول على إنها حلول من السهل ،

والأفضل اللجوء إليها ، والقيام بها ، وإن لم تجد حلاً ، أو نتيجة من الرياضه، أو إتباع النظام الغذائي ؛ يجب اللجؤ إلى شفط الدهون ؛ أو تدبيس المعدة ، وبرغم من إنى طبيب ، وأعلم كل العلم بخطورة عمليات شفط الدهون ، إلا أنني أقول ، وبمنتهي القساوة إنه مهما كانت خطورتها فأي نتيجة ستكون أفضل حالاً مما أنت عليه الآن .

لا أضع أى أعتبار أن الكلمات التى تخرج سهله مرنه من فمي هي فى الواقع أحد في تأثيرها من السيف فى أحشاء كل من قُلت له هذه الكلمات ؛ فكأنني قلت لكل واحدٍ ، الموت أفضل لك من الحياة بهذه الصورة .

ولم أضع في أعتبارى أن جميعنا كمخلوقات أدميه ، أو غير أداميه لدينا أسبابنا التى تجعلنا نتعلق بالحياة ، بالرغم ما فيها من جمود ، وقسوة .

فإن حاولت قتل حشرة ما تجدها تهرب مُسرعه ؛ لتنجوا بحياتها ، مستخدمه كل طريقة ممكنه .

حتى الكائنات الدقيقة جداً ، والتى لم تتجاوز فترة حياتها، ودورتها الطبيعية إلا حوالى سبعه أيام أيضاً تحاول جاهده أن تعيش هذا الأسبوع كاملاً .

أنـا أعـرف كل هـذه الأفـكار وسـبق أن مـررت بحلـم ، وتجربـة الشـعور بالموت ، إلا إنـى تناسـيتها سـريعاً ، أو إنـى أهتـم بشـعورى أنـا فقـط ، ومـا أخـاف أنـا منـه ، ولا أهتـم لشـعور الأخريـن .

كنـت في عيادتـى كالمعتـاد ، وكانـت السـكرتيره تقـوم بدورهـا فـى إدخـال المرضـى ، وأحـداً تلـو الآخـر ، حتـى دخلـت المريضـة رقـم سـبعه فـى ترتيـب كشـف الحجـوزات.

كانـت إمـرأة فـى الخامسـة والأربعـون مـن عمرهـا ، وعندما نادت السـكرتيرة علـى الاسـم ، والـذي لـن أنسـاه حتـى الآن ، ولـم أسـتطع ألا أذكره ، الأسـتاذة سـميحة عبد السـلام ، قررت السـكرتيره الأسـم ثلاثـة مـرات ، ولـم يجِب أحـد .

حاولت السيدة سميحة أن تجيب ، ولكنها إنشغلت فى محاولات قيامهـا مـن علـى مقعدهـا ، حتـى قامـت بمسـاعدة الجالسـين إلـى جوارهـا ، وأبنائهـا .

وأنـا فـى الداخـل أنتظـر حتـى فُتِـحَ البـاب أخيـراً ، وبـدأت تدخل السيدة فى بطء يشبه بطء السلحفاء إنتظرت طويلاً حتى إسـتقرت علـى الكرسـى ، كانـت جوانبهـا تبـرز إلـى حـدٍ كبيـر مـن المقعـد ...

بـدأت أسـمع شـكواها متضـرراً ، ومتضايقـاً جـداً مـن كل هـذا العطـل الـذى تسـببت فيـه ، الحقيقـة هـي أن الجميـع بمـا فيهـم السـكرتيره ، والمرضـى المنتظريـن يتأففـون متضايقـين كل واحـد بكلمتـه، ونظرتـه .

كانـت السـيدة تسـمع وتشـعر بـكل هـذا ولكنهـا تصـرف كل إهتمامهـا ، وتكثـف طاقتهـا في محـولات التحـرك .

بعـد أن ألقيـت نظـرة علـى أسـنانها وأضراسـها ؛ أتفقنـا إننـا سنحشـوا ذلـك الضـرس ، وننتظـر علـى الآخـر ، إلـى أخـره ...

لـم اسـتطع أن أمنـع نفسـى مـن أن أدخـل معهـا في حـوار حـول وزنهـا ، برغـم ضيقـى بسـبب العطلـة فـى الوقـت الـذى أصرفتـه معهـا وحدهـا قائـلاً بمنتهـي الجمـود ، والبـرود فـى الكلمـات ، والنظـرات : لمـاذا لا تحاولـين أن تقللـى وزنـك ، لتجعلـى حركتـك أسـهل ، وأخـف ، وحتـى لا يتضايـق أحـد مـن حجمـك ، ومسـاحتك ، ورائحتـك .

قلتُ هذه الكلمات بنبرة ، ونظرة البرئ ، وكأنى أنصحها .

نظـرت إلـيَّ السـيدة نظـرة المظلـوم قائلـة « ومـن أدراك يـا دكتـور إنـى لـم أحـاول ، حاولـت بـكل الطـرق حتـى كِدتُ أمـوت ، ولكـن اللّه سـترها .

ليس بإختيارى أن اكون هكذا، ولو كان بإمكانى لكنت أخترت أن أخُلق فراشه، ولكنه حكم الله، ولا إعتراض عليه ؛ لعله يكتب لى الصبر على ما أنا فيه من تعب بسبب الوزن ، وتجريح الناس، الخير ، والجنه ، والمكافأه .

فالحمدلله على كل حال .

خرجت السيدة من العيادة على أن تعود بعد أسبوع ؛ لتقوم بإزالة الحشو المبدائى ، ووضع الحشو النهائى، وبدأ يدخل المرضى المنتظرين واحداً تلو الآخر، ولم يمنع أحدهم نفسه من أن يقول كلمة ، جملة ، أو رأى حول سمنة السيدة سميحة ، وعن كم الوقت الذى أهدرته بسبب سمنتها .

أنتهى يومى فى العيادة ، وخرجت لأعود إلى المنزل ركبت السيارة بعد أن أجبت على إتصال من أختى ، كانت تطمئن علىَّ .

ذهبت لأشترى وجبة العشاء ، وأخذنى الشوق لأعبر من طريق شجرتى المعهودة ، مررت من هناك ألقيت التحية عليها ماراً من جوارها ببطء ، ثم إلى مصعد العمارة .

أنقطع التيار الكهربائي في العمارة للمرة الأولي منذ أن سكنت هناك ، فتعطل المصعد ، ثم عاد التيار في أقل من دقيقة ، قلت في بالي : « ما هو يوم جميل من أوله.»

وصلت أخيراً للشقة ، ومن شدة الجوع لم أصبر حتى أُبدل ملابسي ، بل دخلت سريعاً غسلت يداى ، ثم جلست على سفرتي الصغيرة لآكل ، أكلت ثم أعددت القهوه كعادتى ، وجلست لأشربها على الكرسى الهزاز .

لا يوجد في رأسي إلا إنى أفكر أن أنتهي من قهوتى ، وأقوم لأمدد جسدي على السرير لأنام ، غلبني النُعاس على الكرسى دون أن أشعر .

وأمسى حلمٌ جديد !

يبدوا إنى أعتدت على أن أعرف أخطائى ، وأتعلم أن أُصححها من خلال الأحلام .

رأيت امرأة سمينة جداً جالسة فى إحدى الأسواق الشعبية تبيع القلقاس ، والسلق ، والفاصوليا الخضراء ، يأخذ جسدها وحده من الأرض مساحة تتجاوز المتر وعشرون سنتيمتراً ، ينادى عليها الناس باسم الحجة سامية ، وتتحرك بصعوبة شديدة ، تقوم وتجلس ببطء . لديها عدد من الأبناء ، أرملة لموظف حكومى .

يمر الحلم على أنه فترة زمنيه كبيرة تتوالى فيه الأيام ليأتى أول الشهر ؛ فتذهب تلك السيدة لمكتب البريد لإستلام شهرية المعاش التى لها من زوجها المتوفى ، تُخرج البطاقة العائلية لأرى الاسم ثنائى ، سامية شركس .

ما هذا هل أحلم أنها أختى ؟

وقبل أن أنتهي من فكرة أنها أختى رفَعَت كُمها ، وكانت عادتها قبل إستلام أى مبلغ مالي لتقوم بِعدهُ ، وكانت هناك في كوع يدها اليسرى علامة مميزة وقعت عينى عليها ، لأقول في بالي أن لها علامة في جسدها كما لدى تماماً نفس العلامة .

بالرغم من أنه حلم ، وأنا أشعر ، وأعلم أنه حلم لإنى كنت بين الصحو والغفوة ، كنت أرى كل مشاهد الحلم وصوره وأشخاصه ولم أرى نفسى فيه .

الآن استقر فكرى لأكتشف أنه بما إنى لست هناك ؛ فإنى أنا تحولت في حلمي إلي شخصية الحجة ساميه شركس.

بداء يظهر على جسدي وأشعر به وأنا نائم على الكرسي الهزاز أثر الأنفعال من صدمة ما رأيت نفسى فيه وبدأت أرفضه، وبدأ جسدى يرتعش ، ويعرق ، وأنفى ينكمش من رائحتى ، التى تنشقتها في نفسى فى الحلم .

لذلك فإن الحجة سامية تعلم أن رائحتها كريهه فهي نفسها تكره رائحة جسدها ، وتعلم أن لا أحد يُحب أن يقترب منها ، ولكنها تغسل جسدها بصعوبة ، وتُجففه بصعوبة ، تتحرك ، وتفعل كل شئ بصعوبة ، وبطء .

يأتي لها التُجار ببضاعتها التى تبيعها ليضع كل منهم لها البضاعة في مكانها ، تتكوم أكوام القمامة ، وفتافيت الحصى ، والطين المُتساقطة من الأقفاص ، والمتجولين حولها ، ولا تستطيع أن تبعدها ، بل تنتظر من يأتي ليحملها لها بعيداً عنها .

تنام أحياناً ، بل كثيراً في مكانها ، وهي جالسة ، يأتي الزبائن ليشتروا ، فيجدونها نائمة ؛ فيقول كل واحد منهم جملة في باله ، وكأنه حكيم ، أو عليم الزمن الذى أتى بحكمته ليحل مُشكلتها .

وكأن جميعهم أطباء وأصحاب أبحاث علمية عن السِمنة، وأضرارها ، وطرق التخلص منها .

هي تجلس تستمع لكل واحدٍ منهم ، ثم تبكى وحدها فى هدوء بعدما يتركها الجميع ، ويذهبون .

كلما كلمها أحدهم تبتسم في وجهه ، ثم تتساقط دموعها بعد أن يرحل من أمامها .

يلومها البعض على سمنتها قائلين : قللى كمية الطعام، ووجبات أكلك ، وأنا أيضاً كنت أظن هذا حتى رأيتها ورقبت تصرفاتها من قرب ، فهي لا تآكل إلا القليل جداً من الطعام ربما بيضةً واحدة طول اليوم أو بصلة نيئة ، أو حبة واحدة من الطماطم ، مع قليل من الملح ، ولُقمٍ صغيرة .

يهرب الجميع من مُلاقاتها ، هرباً من طلباتها الكثيره ؛ فهي لا تستطيع أن تفعل شيئاً بمفردها ، حتى أبنائها غير مهتمين ، كما أن منهم من يخجل من أن تظهر معه فى أى مكان .

حتى أنا حينما هممت لكتابة هذا الجزء من أحلامى ، وبالرغم من إنى كتبت كل أحلامى التى حلمتها .

كتبتها كما رأيتها ، وشعرتُها إلا إنى لم أستطع فى هذا الحلم أن أكتبه بصيغة الأنا ، بل كتبته كمُتحدث عن الآخر فأنا أقول عنها، أراها بالرغم أنى قولت أن حلمى يدل على أنها في الحلم تُجسد شخصيتى ، فلا أقول أراني بل أراها ، ولا أقول آكل القليل بل أقول تآكل القليل ، ولا أقول أتحرك ببطء ، بل أقول تتحرك ببطء .

فمن يرى حلماً كهذا يعلم أن شعوره بالهرب سيغلب على شعوره بالعاطفة ، فالمنظر صعب جداً ، ومحاولة وضع نفسك مكان الشخص المرفوض من الجميع أصعب وأصعب .

فالوزن زائد جداً والجلد مُترهل والرائحة كريهه والجسد مُحتر جداً في الصيف ثقيلً جداً في الشتاء .

وأنا بالرغم من إنى شعرت بشعورهم إلا إنى لم أستطع أن أكتبه بالحديث عن نفسى .

والآن أرى في الحلم أنني أو أن الحاجة سامية توفر من طعامها، ومصروفاتها لتدخر مبلغاً من المال ، وتذهب لأحدى المراكز الطبية لتقوم بعملية شفط دهون من جسدها .

أثقل عليها الطبيب ، والمركز بمبلغ كبير لا طاقة لها به، إلا إنها جمعته أخيراً لتذهب إلى هناك دون علم أحد ودون أن يعلم ابنائها .

ويتم تحضير غرفة العمليات ،وتدخل السيدة سامية شركس على أقدامها صحيحة سليمة ، وتفقد هناك حياتها دون أى شعور من أحد ، أو إهتمام بل أن الجميع يلقى اللوم عليها ، بدلاً من أن يراجع كل واحدٍ منهم كلماته، فربما قد قتلها قبل هذا بكثير، ربما هي ماتت مئات المرات من كلمات الناس وعبارتهم التى أفقدتها لذه الحياة .

ربما خاطرت بحياتها في هذه الجراحة ؛ مُفضلة الموت الحقيقي على أن تعيش بهذه الحالة لتموت مراتٍ عديدة وكل يوم من التنمر ، والأهانة ، والنكات عليها وعلى من مثلها .

ربما لو كانت أحبت الحياة لأى سبب كانت ، وجدت حلاً آخر غير الجراحة ، ومواجهة الموت .

وربما هناك العديد من الحلول غير العبارات الموجعة .

ماتت الحجة سامية شركس .

إنتهى الحلم ، واستيقظت على أثره عند أذان الفجر ، لأجد نفسي جالساً على الكرسي ، وجسدي مُبتلً من العرق ، وأزرار قميصى مفتوحة ، وكوب القهوة فارغاً موضوعاً على الترابيزة أمامى .

لم يتصور أمام عينى في هذه اللحظة عندما أستيقظت سوى صورة ، وأسم السيدة سميحة عبد السلام .

ذهبت إلى المطبخ ، أعددت كوباً ساخناً من اللبن شربته، وأكملت نومى ، ثم استيقظت دونت الحلم في مدونة مُذكراتى ، وعندما ذهبت إلى العيادة طلبت من السكرتيرة أن تحضر لى رقم التليفون المحمول الخاص بالسيدة سميحة عبد السلام ، أتصلت بها أُذكرها بموعد تبديل الحشو الذى أتممته لها ، وأطمئن على سلامة الحشو الموضوع مؤقتاً ، وأخبرتها أنه يمكنها أن تحضر إلى العيادة قبل الموعد المُحدد لو أرادت ذلك .

سعيت أن أكسب ثقتها ، ومحبتها ، وحدث ذلك .

أكتشفت أنها أخف المخلوقات ظلاً ، وأطيبهم خُلُقاً ، وأنها رقيقة إلى درجة كبيرة .

وأكتشفت أنه أن تكون ثقيل الوزن خفيف الظل أفضل من أن تكون خفيف الوزن ثقيل الظل والدم .

وأن تكون إنسان رشيق الخُلق ، والعبارات أفضل من أن تكون رشيق الجسد فقط .

وأن هناك العديد من الناس لم يرضوا عن صورتهم ، أو أشكالهم ، ولكنهم رضوا بما صنع الله ، وتقبلوا الوضع ، وأعتقدوا الخير فيه .

وأن الأنسان لم يصنع جسده لنفسه ، أو هو من صوره ، وأن ما من أحد صور نفسه طويلاً ، أو قصير ، أبيضً ، أو أسود ، سميناً ، أو نحيفاً ، وأننا وإن كنا معتدلي القامه فما أعتدال قامتنا إلا هدية من الخالق ، ولا فضل لنا في هذا .

غير أننا جميعنا عنصريين دون استثناء أغلبنا ؛ فالسمين يتنمر على النحيف ، والنحيف يتنمر على السمين ، والمُعتدل يتنمر على كلاهما ، والأبيض يتنمر على الأسمر ، والأسمر يتنمر على الأبيض، وكأننا من خلقنا أنفسنا بأيدينا ، وكأن ما من خالق صور جميعنا في أحسن ، وأفضل تشكيل .

وأن ما من أحد يقدر على أن يخلق صورةٍ أفضل من تلك التى لا تعجبه .

وأنـه يجـب علينـا جميعنـا أن نقـول لبعضنـا كلمـات الحـب ، والتشـجيع ، والإمتنـان .

وإن أعتدنـا علـى هـذا النـوع مـن الكلمـات الجميلـة ، والطيبـة المُشـجعه مـا مـات منـا أحـد منتحـراً مُلقيـاً جسـده ضحيـة في غرفـة عمليـات التنحيـف القاتلـه .

وما كانت ماتت سيدة طيبة المشاعر مثل الحجة سامية .

●●●

# الزهايمر

المشكلة الحقيقية في تركيبتى هى إنى لا أهتم بشعور أحد، ولا أُصلح شئ من أجل أعترافى بالخطاء من جهتى ، ولكن أُحاول الأصلاح من أجل تلاشى مخاوفى ليس أكثر ، لا من أجل التصليح الحقيقى .

لا أُصلح شئ من أجل أحد بل كل ما أصلحه من أجلى ، أنا ، وأنا فقط ولذلك كنت أنسى سريعاً ، أو أُصلح ما قد تخوفت منه فقط ، وللوقت ينتهى كل شئ حين أنسى خوفى ، أو أنسى الحلم الذى بسببه كان الخوف .

ولهذا كان الحلم الرابع فى مدونتى ، هو السبب المباشر الذى جعلنى أدون كل شئ حدث قبله ، وبعده ؛ فقبلاً كنت أدون أشياء معينه ، أما بعد ذلك الحلم بدأت أسترجع ، وأدون كل الأشياء بمنتهى الدقة ، والترتيب .

وكان كما يلي .

أنه فى حفلٍ ، قد أُقيم لتكريم الأطباء الكبار عمراً – خاصة الأسماء الكبيرة – الذى لهم تاريخهم في الأبحاث والتطوير .

حضر إلى الحفل واحداً من الأطباء القدامى ، وكان عمره قد تجاوز الثمانين ببضع سنوات .

كان قد حضر برفقة أبنته ، وكانت خبيرة تغذية مشهوره.

رأينا الرجل وقد ضعف بصره ، وإرتعشت يداه ، وكثُرة أسألته كالأطفال ، يمسك بيد ابنته ، ولا يتوقف عن أن يسألها عن أسمها ، وسبب تمسكها بيده .

كلما أقترب أحد ليلقى عليه التحيه والسلام سأله عن أسمه، أو من يكون ، وما يريد .

أراد أن يشرب العصير ؛ فقامت أبنته بمساعدته ؛ فهو لا يستطيع أن يمسك الكأس ، بسبب إرتعاشة يده .

أنظر إليهم من الطاولة المجاورة ، وأضحك على الأمور دون إبداء أى إهتمام ، أو شفقه ، أو مُساعدة فتنظر إلىَّ ابنته ، الدكتورة أمال ، وتقول أنا أعرف من تكون ، أنتَ الدكتور أسامه شركس ، يُعرف عنك أنك أحد أهم أطباء الأسنان ، وجراحات الفم ، ولكن الغريب أنك تضحك على تصرفات والدى ، وهو كان يشبهك تماماً في شبابه ، فهو الذى أعد أبحاثاً تعلم منها ، وأكمل عليها أجيالاً من بعدهُ بما فيهم أنت يا دكتور .

وهو أيضاً كان يضحك على كل شئ ، وعلى كل أحد أنتَ الآن شابٍ ، وغداً عجوز ، وربما يصيبك ، أو يصيب أى أحد منا مرض الزهايمر ؛ فننسى كل شئ حتى أسمائنا ، وأبحاثنا ، ونعود مثل الأطفال لا نأكل ، ولا نشرب إلا بمساعدة أحدهم .

لـم تكمـل كلامهـا حتـى ضغـط ، والدهـا علـى يديهـا لتـرى مـا قـد حـدث !

إنه قد تبول على ملابسه .

أمسـكتُ نفسـى عـن الضحـك ، كمـا فعـل الجميـع حتـى أقتـرب منهـم أحـد الزمـلاء ، ليرفـع الحـرج عنهـا ، ويقـوم بمسـاعدتها فـى إقامـة والدهـا ، وتوصيلهـم إلـى السـيارة .

شـعرتُ بالإحـراج كونهـا وجهـت كلامهـا لـى أنـا ؛ فخرجـتُ ورائهـم، وإقتربـت أسـاعدهم بـأن أفتـح لهـم بـاب السـيارة، أو أمسـك بيـد الطبيـب العجـوز ، لأجلسـه علـى مقعـده فـى السـيارة ، أفعـل هـذا، ولكـن كلماتـى ، وتحركاتـى كانـت تخلـو مـن الإنسـانيه .

عُدنـا أنـا ، والزميـل الـذى قـام قبلـى ليسـاعدهم إلـى الحفـل، وأنتهـى بـى اليـوم إنـى لا أفكـر فـى شـئ سـوى العجـوز ، ومرضـه ، لذلـك كان مـن المتوقـع أن أحلـم بمـا يُفيـد ، أو يُعالـج هـذا ، ولإنـى فكرت إنـه مـن المحتمـل أن أحلـم بذلـك فكنـت مهيئـاً لهـذا ، وبمجـرد أن سـحبت الغطـاء علـى سـريرى غرقـت سـريعاً فـى النـوم ؛ لأجـد نفسـى داخـل جسـد سـمكة صغيـره جداً فـى وسـط مُحيـط كبيـر مـن الميـاه المالحـه .

أنا قد تحولت لسمكة صغيره ، وبرغم من إنى سمكة إلا إنى أحاول أن أنجو من الغرق .

ولا أعرف كيف أصف لكم هذا الشعور ، كل ما أستطيع أن أقوله أنه شعور مشابه بشعور إنسان مصاب بنزلة أنفلونزا ، ولا يستطيع أن يتنفس رغم وجوده فى حديقة فى بداية الصباح ، وأن كل ما يشتهيه هو أن يملأ رئتيه بالأكسجين المُحيط به من كل جانب ، فلا يستطيع.

كان هذا هو الشعور الذى تملكنى فى هذا الحلم فأنا سمكة، ولكن الشعور والفكر ، شعور وفكر إنسان .

حاولت بكل جهدى أن أخرج إلى الشاطئ ، ولكن المياه تغمرنى، والتيارات أعنف ، وأقوى منى .

ظللت أحاول ، وأحاول حتى جاءت موجة ، وصدمتنى في صخرة ، ومتُ .

استيقظت على آثر هذه الصدمه ، نظرتُ فى ساعتى أنها الثالثة فجراً إبتسمت ، وشربت القليل من الماء ، وأكملت نومى ؛ لأغرق فى حلم آخر .

رأيت فيه حماراً مُعلقاً فى عربة كارو يضربه سائقه ليمشي أسرع مما هو عليه ، وأشعر عندما يضربه صاحبه أن الضرب

موجه لى أنا ، ولكن واقع الآلم أخف مما يشعر به الإنسان من ضربة ، مثل هذه الضربات .

أجرى هارباً من الضرب ، أظن إنى أجرى ، والسائق يجري ورائى ، وإنى كلما أسرعت لم يمكنه اللحاق بى ليضربنى مجدداً، وظللت أنا أجرى وظل السائق يضربنى ، وكان إذا أطعمنى ، يطعمنى أقل مما ضربنى، وكان إذا تضايق منى سبني قائلاً : « يا حمار يا ابن الحمار ، أو يا حمار يا ابن الكلب .»

أشعر بضيقٍ شديد ، وبالرغم من إنى فى هذا الجسد ؛ صَعُبت علىَّ حالتى ، وإمتنعت عن الطعام ، والشراب ، ولكن بينما إمتنعت أنا عن الطعام ؛ لم يمتنع هو عن إيذائى ، ولم أجد رحمة جراء هذا، بل كان الجزاء أنه دخل إلى محلتى ممسكاً عصا من الخيرزان، وبدأ يضربنى أكثر وأكثر ، حتى قمت أنا بدورى ورفسته رفسةً تلو الأخرى ، حتى مات تحت أقدامى فاستيقظت من النوم مفزوعاً .

لقد قتلتهُ قتلتهُ قتلتهُ .

آه ما هذا إنه حلمٌ غريب ، الحمدللّه أنا بخير ، أنا أسامه ، أسامه أنا لست حمار ، أنا أسامه كما أنا .

ثم عدتُ إلى النوم مرة أُخرى ؛ لأحلم هذه المرة إنى ريشة تحملها الرياح حيث تشاء ، وإنه لا سبيل من مقاومة الهواء ، وإنى لا أسير وفقاً لإرادتى ، وإن غراباً نزل إلىَّ ، وأخذنى ليضعنى بطانة فى عش جديد يصنعه لصغاره ؛ لتدور الأيام وأجد إن غراباً صغيراً يتبرز فوقي .

أستيقظت للمرةً الثالثة ، يبدو أن هذا اليوم لا يريد أن ينتهى على خير .

كنت مهيئاً لحلم واحد وجهزت نفسى لمواجهة تخوفى منه ، والآن ياليته يأتى ، لتنتهي معاناتى من أحلام تلك الليله اللانهائيه، فكل أحلام اليوم أغرب ، وأصعب مما يسبقه .

والحقيقه أنه حين تقراء هذا الكلام ، ربما تضحك ، وتسخر منه ، ولكن إذا شعرت به تجده صعباً جداً .

استيقظت صباحاً ، وبدأت اليوم ، ومر كباقي الأيام . توالات الأيام تلو بعضها .

مر حوالي خمسة أشهر لم يحدث فيها أمراً ملفتاً للأنتباه حتى جاءت ليلة الثلاثاء الأولى من شهر أغسطس .

وبداءت القصه هذا اليوم كما يلي :

كنت عائداً من العيادة ليلاً ، وكان بالقرب من العمارة التى أسكن فيها عمارة يتم بها بعض التجديدات كتغير وجهة الرخام ، وكان الحرفى الذى يقوم بقطع الرخام يقطع أجزائه بماكينة قطع الرخام ، وكان الغبار الأبيض الناتج عن هذه العمليه يملأ الجو، وزجاج سيارتى مفتوح ، وعندما صعدت إلى شقتى دخلت إلى الحمام ، لأغسل وجهى فنظرت أولاً فى المرآه ، لأجد بعض الغبار على شعرى ، ورموشى ؛ فأبتسمت ، ربما يكون هذا هو شكلى عندما يشيب شعرى .

ثم خرجت من الحمام ، وبدلت ملابسى ، ودخلت غرفة نومي لأنهى يومى ، وأنام .

كنت مرهقاً جداً ، ولكنى لم أنم سريعاً ، وبعد فتره ليست بقليله نمتُ أخيراً لأستمع فى أُذنى لصوت الدكتوره أمال ، أنها الدكتوره خبيرة التغذية ابنة الدكتور المُسن ، وكانت كلماتها هى أنت اليوم شابٍ ، وغداً عجوز ، وكانت هذه العبارة تتردد كثيراً فى ذهني أثناء نومى ، وبنفس الصوت حتى رأيتنى فى جهة آخرى من موقع وجهة الدكتوره أمال ، ورأيت نفسى أشيب من مرحلة عُمريه لآخرى ، كلما قالت جملتها المعهوده» أنت الآن شاب وغداً عجوز «

وكلما قالتها أنتقل من حالة لحالة ، ومن عُمر لما هو أكبر منه، حتى أتيت لعمر الخامسة والثمانون .

وساصف لكم شكلى وهيئتى قبل أى شئ :

تحولت بشرتي المشدودة إلى اللون الرمادى ، الذى لم يعد يمر فيه الدم ، وإمتلاء وجهى بالخطوط ، والكرمشات ، سقط أغلب شعري ، وتحول ما تبقى منه إلى اللون الأبيض كالصوف، أو كالثلج.

تظهر الآن وبعد سقوط الشعر ، أُذناى كبيرتان ، وأنحنت أكتافى للداخل ، وإرتعشت أصابعي ، وأصبحت خطواتى بطيئة لدرجة مملة ، وقاتله ، ولكني أذكر كل شئ وأذكر الجميع ، ولا يذكرني أحد .

ما أعرفه عن مرض الزهايمر إنه يصيب الشخص ؛ فينسى أشخاص ، ومواقف .

ولكن يبقى الناس يذكرونه أما ما أصابني هو أمر مُحير، فأنا كما أنا أذكر الناس ، ولكن الناس لا يذكروننى ، أعرفهم ، ولا يتعرفون علىَّ ؛ فالآن لا أحد يعرفنى ، أو يسندنى ، أو يأخذ بيدى، ولا أحد يسأل عنى ، أو يهتم بأمرى .

لا أحد يطعمنى ، أو يسقيني شربة ماء ، لا أحد يساعدنى في تبديل ملابسى لذلك لا أُبدلها .

أغلقتُ العيادة ، لذلك لم أعُد الطبيب العظيم ، والمشهور، يسرقني البواب الجديد ، ويغشنى إن أحضر لى شيئاً ؛ فهو يحضر أسوء شئ بأغلى سعر ، ويقول هذا هو الموجود ، وإن لم يعجبك إنزل ، وأحضر بنفسك ما تشاء .

أجلس طويلاً فى مكانٍ واحد ؛ فلا استطيع أن أتحرك كما كنت من مكان لآخر ، ومن هنا لهناك كما كنت شاباً .

ليت العُمر ينتهى الآن ، ليت أحداً يذكرنى ، أو يسأل عنى ، ليته يوجد من يهتم بأمري ، أو يسندنى .

أبحث عمن يجالسنى ، ويحضر لى الطعام مقابل مرتب؛ فلا يصنع أحدهم شئ معى إلا بمقابل ؛ فلا أحد يعرفنى ، أو يحبنى .

أُحدث نفسي أحاديث كثيره ، أنا الدكتور أسامه شركس، جاءت الأيام لأكون فى هذا الوضع المؤلم ، ألم يتعرف علىَّ أحد قط .

الحقيقة هي إنى لم أصنع لأحد شئ بدون مقابل ، ولذلك لا أحصل على شئ بدون مقابل ، هذا هو عدل الحياه؛ فإن أحببت تُحب ، وإن لم تقدم الحب ستبقى وحيداً .

جلست لأذكر نفسى لماذا إبتعد عنى الجميع ، ولماذا لا يوجد أحد إلى جوارى .

أنا أخطأت كثيراً فى الماضي ، وكنت أظن أن شبابى ، وحيويتي دائمة ، والآن أنا وحيداً عجوز لا قوة فىَّ ، ولا حركة ، سقطت منى بعض الدموع ؛ فالآن أبكى على شيخوختى ، ونكران الناس معرفتى.

الآن أبكي على حالتى ؛ فالموت أفضل .

قمت من على مقعدى وتعثّرت رجلي فى عكازى الذى أتكئ عليه ، لأسقط على الأرض ، حاولت النهوض ، ولكنى أخذت ساعةً كاملةً لأنهض ، وأعود لمكانى من جديد على المقعد ذاته ، مما جعلني أبكي أكثر وأكثر .

أنه إختبار صعب ، أصعب من كل ما سبقه ؛ فلماذا أعيش حتى الآن طالما لا يوجد شئ لأفعله ، ولا قوة فىَّ لأعمل شئ .

لماذا لا ينتهي الأمر ، وتنتهي المعاناة .

لماذا يسخر الجميع من عجزى ، وكبر سنى ، وكيف أصبحتُ لا أقدر على عمل أى شئ ...

توالت الأسئلة في رأسي ، وكلمة لما ؟ ولماذا ؟

حتى أستيقظت من نومي لم أفعل شئ ، أو أفكر فى شئ إلا إنى أمسكت هاتفي المحمول ، أبحث فيه عن موقع المركز الخاص بالدكتوره أمال ، لأحصل على رقم هاتفها ، وأتصل بها أذكرها بنفسى ، وأعتذر عن ما بدر منى فى الحفل ، وأعتذرت كثيراً .

والأن عندما أري عجوزاً في الطريق لا استطيع إلا أن أوقف سيارتي ، أو أُبطيء سيري بها حتى يعبر دون خوف ، أو قلق، وأنظر لتلك الخطوط ، والتجاعيد في وجوههم بإحترام غير مألوف.

كما إنى أيضاً أسرح كثيراً كلما رأيت طفلاً صغيراً ، ورجل عجوز ، أو إمرأة خاصة ، وأن كان الطفل رضيع ، ويقف عقلي بين هذا ، وذاك ، وبين ما يفعله الإنسان في إنتقاله بين هذه المرحلة ، والأخرى من عمره ، وما يفعله به الزمن ، والتقدم حتى إنه يأتي من قمة الضعف إلى قمة القوة ، ثم الى قمة العجز ، والضعف أيضاً .

وأتعجب إننا جميعاً نعلم هذا ، وندركة كل الإدراك ، ولا نعمل من أجله ، وإننا طورنا العلم ، والتكنولوجيا ، والأبحاث ، ولم نستطع أن نوقف الزمن ، أو تقدم السن .

أخترعنا الصبغات وألوان الشعر ، وأكتشفنا الرياضه ،ووضعنا لها طرق ، وأجهزة ، ومعدات ، ولم نقدر أن نوقف شعرة واحدة

أردت أن تغير لونها من الإسود إلى الأبيض ، ولم نقدر أن نوقف إنحناء العظام ، أو دمور العضلات ، والأعصاب .

وأتعجب من نفسي حينما كنت أضحك على كبار السن ، وعلى إرتعاشة أيديهم ، وبطء خطواتهم ، وعدم قدرتهم على التركيز ، أو التذكر .

وما تم في الأمر هو إنى تعلمت أن أحترم المُسنين ، والذين عبر بهم تيار العمر من الشباب الى نهاية الرحلة ، أو إلى قرب نهاية الرحله .

●●●

# البهلول

كنت أظن لفترة طويلة إنى سعيد ، وأن لا حاجة عندى لأحد ليشاركنى حياتى ، ورحلتى.

الآن أدركت إنى أحتاج للناس ، والحب ، وأن هناك الكثير من الأشياء التى أفتقدها ، ولكني لم أكن أشعر قبل هذا الوقت بإحتياجي لها ، وأدركت إنه يجب أن يكون لدى أصدقاء ، وزوجة، وأبناء ، كما أدركت إنه يجب أن يكون لدى ابنةً مثل الدكتورة أمال خبيرة التغذية .

فهمت الآن ألا أنظر إلى الوقت الراهن فقط ، وانه يجب أن أنظر إلى بعيد ، أن أنظر للسنوات العجاف ، وأدخر من مخزون سنوات الوفرة .

أول ما بدى إلى تفكيري بعد أيام من أعتذار للدكتورة أمال عن سخريتي من وضع والدها الطبيب الكبير ، وإصابته بمرض الزهايمر ، جاءتنى إلى عيادتي بعدها بثلاثة أيام السيدة سميحه عبد السلام ، والتى كانت زارتني قبلاً ، لتشكو من أسنانها ، وكانت تعانى من السمنة المُفرطة ، تذكرت عندما أتتنى أنه من الممكن أن تساعدها الدكتورة أمال في حل مشكلة سمنتها ؛ فأقنعت السيدة سميحه ، ثم أتصلت بالدكتورة أحدد معها موعد لزيارتها بعد أن شرحت لها وضع السيدة سميحة .

كان الأتصال يوم الأحد ، وموعد الزيارة تم تحديده الأربعاء الذى يعقبه ، ذهبنا إلى المركز لأجد لافته مُعلقة على باب المركز أنها تحدد يوم في الأسبوع يكون الكشف فيه بالمجان ، ودون أي مقابل لأى أحد لا يستطيع أن يدفع ، وقفت أمام اللافته كثيراً ، أثار الأمر أهتمامى ، ودهشتى ، وفضولى ؛ فهى ليست مُجبرة على هذا .

بدأت أفكر ، وأسأل أسئلة كثيرة فى ذهنى ...

لماذا تفعل هذا الأمر ، وبما يعود عليها ؟

دخلنا لمقابلتها ، وإستقبلتنا بوفره من الإحترام ، والإهتمام . كنت أظن أنها سترمقنى بنظرات اللوم ، والعتاب خاصة، وأنها أول مقابلة بعد ما تم فى الحفل ، وبعد إعتذارى لها .

ولكنها أصرفت كل أهتمامها بالسيدة سميحه ، وطمئنتها بكلمات مليئه باللطف ، والأمل ، والأبتسامة الصادقة .

ظللت أنظر لها ، وأستمع إلى حوارهما الباسم خفيف الظل، وأنا أفكر ، وأذكر حلم سمنتى حينما حلمت إنى الحجة ساميه شركس ، وأقول فى داخلى كنت أحتاج لطبيبة كهذه حتى أحيا أكثر، واكثر .

رأيت الناس فى عيادتها يعاملونها بمنتهى الحب .

رأيتهم يتكلمون عنها في عدم حضورها أرق ، وأعذب بل ، وأجمل الكلمات ، رأيتهم يحبونها حقاً .

رأيت لأفته أخرى مكتوب عليها إنه إن تمم أحد علاجه، وتبقى لديه أية أدوية لم يعد يحتاج إليها ؛ فإن أراد يمكنه أن يحضرها إلى المركز متبرعاً بها ، وكانت تضع تلك الأدوية فى دولاب زجاجى جوار الأفته ، وكان الأمر ليستفيد منه المرضى الفقراء .

رأيت أفكاراً كثيره لم تخطر لى ، ولم أكن لأفكر بتلك الطريقة أبداً .

رأيت إنها أعطت الناس حباً ، وتقديراً ، وبادلها مرضاها ، وموظفيها الحب ، والتقدير .

رأيت أنه لم يكن هناك أحداً يعيش لنفسه فقط سواى ورأيت ولأول مرة أفكر ف هذا الأمر إنى أقف أمام إمرأة جميلة بكل المقاييس ، هي جميلة جداً فى كل شئ، وبالرغم أنها فى مكان عملها ، وأن ملابسها بسيطة جداً إلا أنها تُضئ كبلورة ، أو شمعةٍ في غرفة مظلمة .

رأيت أنها أنعكاساً لكل مساوئى .

لا شك إنى بتُ أنظر إليها كثيراً ؛ فهي متفوقة ، محبوبة ، وجميلة ، وأنا بعد خروجي من حلم شيخوختى، وتخوفى أن أقض سنواتى الأخيرة وحيداً مُهملاً .

بدأت أفكر في أمر الزواج ، ولا شك أنها أول بل ، وكل من خطر في بالي ، ولكن بعد زيارتى لعيادتها تخوفت ، وأخرجت الفكرة من رأسي ؛ فهى لن تقبل بإنسان سليط اللسان ، ولا يهتم بأمر أحد غير نفسه مثلى ، حتى جاءت كلمات السيدة سميحه ، والتى أفاقتنى من سرحاني ، والتى كانت كلماتها طيبة فى حقى ، الأمر الذى جعلنى أظهر بعض الخجل المصتنع .

آه لو تعلمين أن سبب محبتى لكى هو حلم ، وضعنى فى مكانك، وحجمك .

إنتهت المقابله مع الدكتورة أمال ، وطلبت منها موعد أحدثها فيه عن بعض الأمور الذى أعجبتي ، وأنى مُحتاج إلى خبرتها فيها .

بدى الأمر عادياً ، أتصلت بها ، حددنا موعد ، وذهبت للقائها فى عيادتها ، وبدأت أسألها عن بعض الأمور المتعلقة فى ذهنى عن اليوم المجاني فى مركزها، والعلاج المجاني .

أوضحت لى بعض أهتمامتها ، وأنها رأت أمور كهذه تحدث خارج مصر ، وقررت أن تفعل مثلها ، وأن الكثير من زملائها ، وأصدقائها يفعلون الأمر نفسه ، وأنه إن لم يكن بدافع المحبة الخالصة ؛ فمن الممكن أن يكون بدافع الذكاة ، أو الدعاية ، أو شراء محبة ، وأهتمام ، وخدمات الناس .

وأزادت فى كلامها ...

أنت لا ترى كيف يقابلنى بواب العماره عند العيادة أخذاً من يدى حقائبى ، مهتماً بكل شيئ ، لا أطلب منه شئ فيأتنى متأخراً أبداً .

ويمكنك أن تضع هذا مقياساً للجميع ، فهى فكرة أن تساعد الناس ؛ فيردوا لك المساعدة ، كما أن فيها درساً لكل أحد يخرج من عيادتى ممتلئ بالغيرة أن يساعد ، أو أن يُحاط بنفس القدر من الحب ، والأهتمام مثلما شعرت أنت بالضبط .

فأجبتها أن هذا حقاً آثار إهتمامى ، وكنت أفكر فى أن أفعل شئ ، ولم أكن أعرف ما هو ، ولكنى أدركته حينما زرتُ عيادتكِ مع السيدة سميحة ، ولذلك قررت أن أسألك عن كل شئ ، وأعِدك إنى سأبدأ في التنفيذ .

فأجابتنى ، أنت بدأت بالفعل عندما أحضرت لى السيدة سميحة .

الحقيقة أن كل أهتمامى كان منصباً نحو جمالها ، وكل وعودى كانت لكسب إحترامها ، وأن أراها تبتسم ، ولكى أشعر بهذا أنها غفرت لى المشكلة القديمة .

عدتً إلى البيت بعد مقابلتها ، وإنتهى يومى كعادته بالعشاء، وشرب القهوة على المقعد الهزاز أفكر فيها ، وفى صورتها ، ثم إلى سريرى ، فالنوم .

كنت أظن إنى سأحلم بها ، وبفستان الزفاف ، وأنها تساندنى فى شيخوختى ، مثلما رأيتها تساند والدها ، ولكن الحلم جاء بعيداً تماماً عن كل ذلك .

وجاء الحلم بالحقيقة التى كانت كامنة فى داخلى ، وهى إنى كالمخبول ، أو البهلول الذى لا رجاء فيه .

رأيت وكأن الزمان عاد إلى الوراء ربما لألف سنه ، وإنى واحداً من البهاليل ، أو المخابيل الذين تطعمهم إمرأة عجوزة غنية فى إحدى التيكيات ، وأماكن الطعام المجاني .

أكانوا يصنعون هذا حقاً فى القدم ؟

أكان هناك من يطعم الناس بالمجان ؟!

لست أدرى أن هذا حقيقه ، ولكن رأيتنى فى حلمى هكذا، ورأيتني أدور فى الشوارع ، والأذقة يتلقانى الأولاد الصغار بالحجارة؛ فيبعدهم عنى أحد الرجال الكبار .

يعبر موكب السلطان بقربى ؛ فيضربُنى واحداً من العسكر كى لا أظهر أمام السلطان بملابسى هذه .

أرتدى ملابس عبارة عن مجموعة من الخِرق والهَلاهيل المُتسخة ، يتدلى شعرى على أكتافى فى خُصل متحجرة، حافياً ، وكان لون جسدى أسود من كثرة الأوساخ عليه .

أمشى بطريقةٍ يراها الناس ؛ فيضحكون .

أسمع بعضهم يقول عنى لا نعرف له أُماً ، أو أباً ، أو إخوة، ولا نعرف من أين جاء ، أو إلى أين يذهب ؛ فهو ظهر فجأة فى أذقتنا ، يعرف أشياء ، ويكتم أشياء أُخرى ، أسمع أنا هذه العبارات تقال عنى ، كما يسمعها الكثير من الناس ، ولا أفهم أى شئ مما أنا فيه.

يصل هذا الكلام للسلطان ؛ فيرسل من يحضرني أمامه، وكان للسلطان خصومات مع سلاطين البلاد الآخرى؛ فكان يظن إنى جاسوس أُرسِلت إليه من جواسيس أحد هؤلاء السلاطين ،

ولم يكن يظن فقط ، بل كان متأكداً ، حيث أنه هو قام منذ فترة بإرسال أحد رجاله ليتجسس على سلطان من السلاطين الآخرين، وكانت الخِطه أن يقوم بدور المخبول فى السلطنه الآخرى لكى لا يكشفه ، أو يشك فيه أحد ، وقد أجزم السلطان إنى موضوعٌ عليه فى خطةٍ مشابهه لخطتهُ .

وكلما سألنى شيئاً ، أجبته إنى لا أعرفه ، ولا أعرف عن ماذا يتكلم ، أو عن ماذا يسألنى ، وإنى لا أفهم الكلام ، وعبارته .

فكانوا يزيدون الضرب ، والجلدات ، ثم يلقوننى فى سجنٍ قاسٍ .

ظللت هناك وقتاً طويلاً ، ولا أدرى كم كانت المدة أسابيع ، أم أشهُر ، أم سنوات ؛ فأنا مخبول على كل حال ، ولا أعرف إجابات أسئلة السلطان ، ورجاله ، ولا أعرف للأيام مواقيت ، أو حسابات.

وأجبتهم كثيراً إنى لا أعرف أى شئ إلا إنى وجدت نفسى بهلولاً ، أو مخبولاً ، حتى لست أدرى ما هي صفتى ، وهل هناك فارق بين هذا ، وذاك !

قولت لهم إني وجدتني آكل في إحدى التيكيات ، وأنى لا أعرف شئ قبل هذا ، ولا أعرف من أين أتيت ، ولا أعرف من أين أنا ، أو من أنا ، ولا أعرف إلا إنى أمشى مشية يضحك عليها

الناس ، ويلقفني الأطفال بالحجارة ، ولا أعرف لماذا لون جلدى مختلف عن لون جلودهم ، ولما شعر رأسي مختلف عن شعور رؤوسهم.

وبعد ضرب ، وعذابات كثيره لم تفيدهم بأية مكاسب ، قاموا بعرضي أخيراً على السلطان ليقوم بإصدار الحكم النهائي فى أمرى.

ومن المُنتظر أن يكون الحكم هو أن أُسلم للسياف ليفصل رأسى عن جسدى ، وما كنت حتى لأفهم هذا الحكم حتى رأيتها تصرخ ، وترجوه ألا يفعل هذا ، وأن يرجع عن هذا الحكم ، وقالت أنها تعرفنى من أكون .

نعم كانت هى ، فحينما أحضرونى للسلطان ليصدر الحكم بموتى أصدر حكمه فى اللحظة التى كانت هى تدخل فيها إلى رواق القصر .

أميرة شابة غاية في الجمال ، أقتربت تنظر وجهي ، وتصرخ في السلطان لا يا أبي إنى أعرفه ، أرجوك لا تفعل ، لا تقتله .

نظرتُ فى وجهها لأفهم أمرين ، الأول أن الحُكم الصادر هو حكم سيؤلمنى نوعاً ما كالضرب ، أو العذاب الذى ذقته على يدهم، والأمر الثاني كان أمراً غريباً ، والذى جعلنى أُدرك إنى فى

حلم ، وأنها الدكتورة أمال خبيرة التغذيه ، والسمنه ، والنحافه ، وبالرغم من إنى نائم أدركت ، وأحسست أن هذا حلم لتأديبي ، وبأن لا سلطان ، ولا جلادين ، ولا أطفال يَضربِونى .

وبقيت أنظر إليها في نومي داخل الحلم ، وأستعيد كل حوارى معها حول اليوم المجاني فى العيادة .

أدركت أن كلامها كان لينقذنى ، وأن أهتمامى المُزيف بالأمر هو ما سيغرقنى .

الغريب هو إنى رأيت الحلم ، وفهمت الدرس من الحلم داخل الحلم ، وفى الحلم ، وليس بعد أن استيقظت .

وأنها تقف أمامى جميلة فى كل العصور ، وفى كل الملابس ، وفى كل الصور .

قلت لها فى الحلم ، وهى واقفة تدافع عنى ، وترد عنى حكم الموت هل أنتِ الدكتورة أمال ؟

ثم استيقظت !

وعندما ذهبت لعيادتى طلبت من السكرتيره إحضار أحداً ، ليكتب لافته بها أن هناك يوم بالمجان فى العيادة لمن لا يستطيع أن يدفع ، ولأفته آخرى ترشد المُقتدرين أنه من لديه أدوية لم

يعد يحتاج إليها ، يحضرها إن أراد، وأحب أن يساعد ، وأفرغت أحد فتارين معاجين الأسنان الذى كنت أبيعها فى عيادتى ، ووضعت فيها الأدوية التى تبرع بها الناس ، ليتم إعطائها لمن لا يقدر مجاناً .

قمتُ بهذه الأشياء مع عمل بعض الإصلاحات ، والتوضيبات فى العيادة .

كان الغرض من تلك التوضيبات ، والتجديدات للتأهيل لعمل إفتتاح جديد ، أدعوا فيه الدكتوره أمال ، لأثبت لها إنى قمت بالأمر ، وأنه لم يكن مجرد كلام .

فرحت هى بهذا كثيراً ، وقامت بشكرى .

وثبت أقول لها بصوتٍ خافت كى لا تسمعنى : « أنا اللى بشكرك إنك مسيبتهومش يقطعوا راسى»

فأجابت ماذا تقول ؟

فقلت : « لا متاخديش فى بالك .»

●●●

# عالم آخر

لا أعرف كيف أبدأ هذا الجزء من القصه ، ولا أعرف هل هو حل لكل ما كان قبله ، أم هو الحل لكل ما هو آتٍ ، أهو حل لكل مشكلاتى ، وتخوفاتى ، أم هو حل لمشكلات الأرض كلها ، ومن عليها .

هل أنا وحدى الذى يتحلى بكل هذه الأفكار، والتصرفات، والخصال السيئة ، أم أن هناك الكثيرين ممن هم مرضى الأنانية، والتنمر ؟

وما هو العيب الحقيقي ، والضرر مما نحن فيه ؟

وكيف نؤذى أنفسنا بتصرفاتنا دون أن ندرى ؟

هناك الكثير من الأسئلة التى يجب أن نسألها لذواتنا، ونبحث جيداً عن الإجابات فى داخلنا .

يجب على كل أحد ممن يشبهونى أن ينظروا داخل أنفسهم بعدسة مكبره ، ليروا جيداً ، ليروا الحقائق التى ربما يدفنوها ، أو يغفلون عنها .

يجب أن نفكر في كل أمر من جديد ، وعلينا أن نُعيد كل حسابتنا .

يجب أن نفتش داخلنا ، نفتش بعمق ، وصدق عن الأشياء السيئة ، ونخرجها ، ونبعدها بعيداً عنا، ونتخلص منها نهائياً .

يجب أن نشعر بشعور الأخرين ، ونحس أحساساتهم تجاهنا، ربما لأجل هذا السبب أمرنا الله بالصوم ، والعطاء ، كى يشعر الغنى بالفقير ، ولكى يشعر أصحاب البطون الممتلئه بمعانه الجائعين .

ويجب أنا نضع أنفسنا محل من نسئ إليهم ، وننظر هل نقبل هذه الإسائه ، أم نرفض .

أظن أن لو كل الأرض منذ أدم ، وضعوا أنفسهم داخل هذه الدائرة من الأفكار ، لو إنهم رأوا ما رأيت ، أو شعروا بما شعرت أنا به ، ما كانت قامت أياً من الحروب في العالم القديم ، وما كان قُتِلَ إنسان أو طَمَعَ أنسان ، أو تَجَبَرَ أدامىُ على أدمىِ .

لو أنهم كانوا أعطوا أنفسهم دقائق بسيطة ، لكانوا رأوا ما كان ليغير حياتهم ، وأهدافهم ، وما يغير شكل العالم كله بمن فيه .

لم يكن كل ما رأيته قبل هذا الحلم ليغيرنى من داخلى ، أو ليجدد أعماقى ، ويخلقنى إنساناً من جديد .

أتوق لو استطعت أن آخذ كل الناس ليروا ما رأيت ، وأتوق لو أن السماء تعطي هذا الشعور لكل البشر ، وتمنيت لو يستمر هذا

الحلم ، ولم ينتهى ، ولا أفيق منه أبداً ، إلا لأُغير بعض الأشياء ، لتحسين وضعى فيه أكثر وأكثر .

ولا أعرف حتى هل ستُسعفُنى الكلمات ، والعبارات أن أصف لكم ما أود أن أصفه ، وهل استطيع أن أنقل لكم الصورة كاملةً ، وبشكلها الحقيقى ، هل أقدر على نقل شعورى بالأشياء فى تلك الصور .

أظن أنه على كل أحد أن يراها ، ويشعرها بنفسه ، ولكنى سأنقل لكم قدر اِستطاعتى ، ولعلى لا أنسى منها شيئاً .

كَثُرت الإتصالات بينى وبين الدكتوره أمال ، بالتالى تقابلنا عدة مرات ، ومازلت حتى الآن أُخفى ما أريد أن أقوله لها ، وأمنع نفسى أن أناقشها فى أمر الإرتباط ، وأظن أنها ذكية بما يكفى لتفهم الأمور دون كلام .

فأنا أهتم كثيراً باليوم المجانى ، والأدوية التى تعطى بالمجان للمرضى الفقراء ، يلفت حماسى ، وإهتمامى بهذا الأمر إنتباهها، بل يلفت أنتباه كل من حولى .

يشعر الجميع بتغير شديد ، وملحوظ فى تصرفاتى .

أظن أنها أدركت سبب إهتمامي ، ولذلك قررت أن تضع حداً للعلاقة ، وتحدد أسباب الإتصال ، والمقابلات بيننا.

وكانت المقابلة التى أتخذت قرار فيها ألا أتقابل مع هذه الدكتوره مرة آخرى ، وأن أهدم كل ما بنيته على أثر علاقتى بها .

كنت فى حالة من الغضب ، والسوء من رد فعلها ، وأجابتها عقب أعترافى لها إنى أرغب فى الإرتباط بها .

فقد رفضت الأمر ، ولم استطع أن أكتم أنفعالى ؛ فذهبت إلى العيادة لآعطى أوامرى بالرجوع عن كل ما فعلته .

أمرت بإلغاء اليوم المجاني ، وأن أضع تصرفاتى على خطاها القديم .

دخلت العيادة ؛ فوجدت أم ، وبيدها طفلتها تحمل شيئاً ملفوفاً فى يديها .

أنا أذكرهما جيداً الأم والطفلة ؛ فهى طفلة أحضرتها أمها ، حيث كانت تعانى من إلتهابٍ فى اللثة .

قمت بالكشف عليها سابقاً ، ومعالجتها بالمجان ، وشُفيت البنت تماماً ، وقررت أن تحضر لتشكرنى ، أذكر الطفلة ، وأذكر حديثى معها ، وأذكر إنى كونت عنها فكرةً ؛ إنها طفلة ذكيه ، وموهوبة تجيد فن الرسم رغم صغر سنها ، وكنت قد إتفقت معها أن ترسم لى صورةً، ووعدتها إنى سأعلق تلك الصوره فى عيادتي مكافأةً لها .

جائت حسب الإتفاق لتعطينى الصوره فعلاً ، وشكرتنى والدتها بدعواتها قائله : «الله يباركلك يا دكتور ، ويكتبلك مكافئتك، وأُجرتك فى الجنه» .

لم أستطع وقتها أن أصدر أوامرى ، وأفعل فعلتى التى قد عزمت على أن أفعلها ، وقررت أن أوجلها .

لم استطع أن أمنع نفسى من أن أبتسم لهذه الطفلة الجميلة التى أنستنى ما كنت فيه من إنفعال ، وغضب .

لا أعرف ما هذه القدرة العجيبة التى وضعها الله فى الأطفال؛ فهم يسرقون الغضب ، ويطرحونه بعيداً بكلمة واحدة ، أو نظرة ، أو حركة .

أخذت منها لوحتها ، والتى كنت أظن أن أجدها رسمة طفولية تخلو من مواطن الجمال ، وإنتظام الخطوط ، والأبعاد ، والألوان، إلا إنى وجدت لوحة فنية لا يقدر على رسمها إلا رساماً مقتدر ، جريئاً فى الإمساك بأدواته وألوانه .

شعرت حين نظرت إلى لوحتها أن ملاكاً قد أمسك يدها، ورسم من خلالها ، فقد رسمتنى حسب ما سمعت من أمها من دعوات لأجلى .

فكانت اللوحة عبار عن جنة مملوءة من كل الأشجار ، والألوان، وأضواء الشمس ، والفراشات ، والعصافير ، وأنا وأقفٌ أستمتع بكل هذا ، وكان الرسم ، والألوان دقيقاً جداً جريئاً كما ذكرت ، وكأنها صورة ألتُقِطَت بكاميرة تصوير فوتوغرافى .

ثبتت أنظارى إلى اللوحة كثيراً ، أتفقد كل شئ فيها ، وأسأل هل أنتِ حقاً من رسم هذا؟!

وكم أخذتى من وقت لتُنجزيها ؟

أعدتُ نظري للطفلة التى رأيتها سعيدة أنها صنعت شئ أسعدنى ، والحقيقة إنها استطاعت أن تجعلنى أنسى ما كنت فيه برسمتها ، وقدرتها ، وخلال وجهها الذى يشبه لوحة مرسومة بماء الذهب .

كانت تبدو فى ملابس لا تليق بمن مثلها ، وكانت والدتها أيضاً كذلك .

شكرتها جداً ، وأستحسنت فنها ، وقَبّلتُ خديها ، وأجلت قراري بإلغاء اليوم المجاني فى العيادة .

أنهيت الكشوفات ، وأخذت اللوحة معي على أن أرسلها لمن يضعها في برواز يليق بها ، لأعلقها فى العيادة .

إنتهى اليوم كمثله من الأيام .

ورأيت فى نومى إنى أرتفع عن الأرض فى جسدٍ يثقله تعب جسدى الحالى ، وأن كلما أرتفعت عدة أمتار قليلة أسقط مطروحة بكل وزنى على الأرض ، وأعيدت الكرّة لمرات .

ثم جاء من أمسك بيدى ليرفعنى معه وبدأت أرتفع فى خفةٍ، ورشاقة لم أشعر بها من قبل ، وكان الذى يرفعنى، ويمسك بيدى هو الطفلة صاحبة اللوحه ، وكانت تمسكنى بقوة عجيبة ، وغريب أن يصدر ممن في مثل عمرها هذه القوة التى تغلبنى ، ورأيت إنى أتحرك معها حيثما أشارت ، وأرادت أن تأخذنى ، ورأيت إنها تاخذنى لنغوص معاً ، ونرتفع إلى حيث رسمتنى .

ظلت ماسكه بى ، وظللنا نرتفع حتى أصبحت الأرض في عينى فى حجم قطرة ماء ، حتى أصبحت لا أُميز فى الأرض شئ ، أو صورة ، أو لون .

ورأيت أننا نقترب من الشمس ، وأن الشمس طيبة لا تحرقنا، وأن أشعة الشمس هى عبارة عن أيادى تمتد نحونا لتقدم لنا حباً، ومعونة .

كانت أشعة الشمس بأيادى تمتد ، وأيادى ترجع أيادى تقدم الحب ، وآخرى تعود دون أن تعطيه .

وأن التى تعطي الحب ، تعطيه لمن يقدم الحب ، وأن التى تعود بالحب دون أن تعطيه تذهب لتقدمه ؛ فيرفضه الناس بأعمالهم فتعود أيادى الشمس باكية .

ورأيت أن الحروب تمنع أيادى الشمس من الوصول وأن الكِبر، والغيظ ،والكُرّه ،وكل الخصال السيئة رأيتها كسيوف تُقَطِعُ فى أيادى الشمس .

رأيت الأيادى المُقطعة تنزف دُخاناً ، وظلاماً .

ورأيت أن كل من يقدمون الحب ، والخير ، والسلام تحملهم أيادى الشمس بفرحٍ ، وتكتبُ أسمائهم هناك على أبواب رأيتها، تُكتب أسمائهم بخيوط من نور يصدر عن أشعة الشمس ، وأياديها، وبطريقةٍ يصعب محوها إلا إن أخطاء أصحابها .

رأيت الأشجار تصفق عندما تعود أيادي الشمس حاملة الحب ، ورأيتها تهتف للأسماء التى تُكتب .

الشمس هُناك لا تَغرُب ، وأن النور لا يختفى ، والناس يتحركون، وكأن تحملهم أجنحة النسور ، ورأيت أجسادهم قوية لا يغلبها مرض ، ولا جوع ، ولا شئ من كل هذا الذى يغلب الناس على الأرض .

رأيتهم يتبادلون الحب دون أسباب ، أو مقابل ، ورأيتهم يعيشون بشكل أفضل بكثير مما نحن فيه هنا على الأرض .

رأيت العصافير هناك ، والبلابل ، والعديد من الكائنات، والأشياء التى كانت تُعطى الأرض قبلاً صورةً جيدة ، ولكننا لم نحترمها ؛ فقامت بهجرنا .

أقتربت أتفقد الأبواب ، والأسماء التى عليها ؛ فرأيت أحداً من بعيد واقفاً أمام أحد هذه الأبواب ، ويقوم بمسح أحد الأسماء فى بطء ، وهو يقول ألعله يُصلح ما أفسده؛ فلنصبر عليه ، ألعله يرجع لعقله ؛ فإقتربت لأفهم الأمر لأجد أن المكتوب على الباب هو اسمى، ولكنه فى كتابةٍ باهتةٍ ترمز أنه بين المكتوب ، والممسوح، حاولت أن أفهم لماذا يقوم بمحو اسمى ، ولكن الطفلة التى حملتنى إلى هناك سحبتنى من يدى ، لتُرينى قوائم من الأسماء مكتوبة ، وأسباب كتابتها، وعدم محوها ، وكانت هذه القوائم لاسماء أُناسٍ بذلوا أنفسهم من أجل راحة الناس وخير العالم .

فهناك من أطعم الفقراء ، وهناك من عالجهم ، وهناك من علمهم ، وهناك من أحبهم ، وعاملهم بلطف إلى أخره ...

وهناك من أعطى حتى أخر ما عنده ، وهناك من أفنى صحته في مساعدة الأخرين .

كانت قوائم تحمل العديد من تصرفات ، وأعمال المحبة، والخير ، وكان الشرط الوحيد لآن تُقبَل هذه الأعمال منهم ، وأن تحملها أيادي الشمس لتحفظه ، وتخلده أن يكون بلا مُقابل ، وأن يكون المقابل الوحيد هو الحب ، الحب فقط .

رأيت الأشجار هناك لا تذبُل أوراقها ؛ فلا خريف هناك، ولا شتاء ، ولا صيف .

ورأيت الثمار لا تجف ، ولا تنتهى ؛ فكلما قطفت ثمرةً تثمر آخرى مكانها فى الحال .

وجدت المياه هناك كحبات اللؤلؤء ، أو الماس ، ووجوه الناس كصفائح الذهب .

رأيت أن الناس الآتيين إلى هناك فى حالةٍ من الضعف ، والمرض تحملهم أيادى الشمس ، وتحركهم بطرق ، وحركات تشبة حركات أيادى العنكبوت عندما ينسج خيوطه ؛ فتُعيدهم سالمين ، وأصحاء بأجساد يملؤها القوه ، والقُدرة الشبابيه ، كأجساد أهل هذا المكان الذى رأيته .

ورأيت الناس هناك لا يشيخون ؛ فالجميع شباب كما رأيتهم .

ورأيتهم لا يغضبون ، ولا ينفعلون لأى سبب ، ورأيت أنه لا أسباب لأى غضب ، أو إنفعال ، أو سوء تصرف.

كما رأيت أن الجميع يحبون الجميع ، وأن لا أحد يحمل فى نفسه تفضيل على غيره ، وكان هذا واضحاً على وجوههم، ورأيتهم مؤمنين بأن جميعهم متساويين ، وممتلئين بالحب كلاً منهم قدر ما يستطيع أن يمتلئ ، وأن الكل ممتلئ .

كان لدى الكثير من الأسئلة التى سألتها للطفلة التى رافقتنى، وكلما سألتها سؤال أخذتنى من مكانٍ لآخر .

ورأيت الأجابات بعينى ورأيت الكثير والكثير من الصور التى لم أجد كلمات تصفها ، والتى أردت بسببها لو أستطيع أن أحمل كل الناس ليروها بأعينهم فلا وصف لها فى كل لغاتنا ، أو كل معاجم الكلام .

إنتهت الرحلة سريعاً ربما أخذت الكثير من الوقت ، ساعات، أو أشهر ، وسنوات كان زمنها الأرضي هو فترة النوم ليلاً أشعر أن الوقت قد مضى سريعاً ، ولأول مرة أردت أن لا ينتهى الحلم ، وأردت أن أبقى فيه للأبد .

أعادتنى الطفلة إلى طريق الأرض ، وبدأت الأرض تكبر فى عينى ، ويزداد حجمها شئٍ فشئ ، حتى أستقريت على سريري ، وقالت لى الطفلة : «أنا أُحبك» ثم تركتنى ، وذهبت .

أنتهى الحلم !

ولم أفزع ، ولم يكن هناك شئ يخيفُنى ، أو يفزعُنى ، أكملت نومى ، واستيقظت بهدوء ، ورجعت إلى نفسى ، وإلى حساب قراراتى من جديد .

أول ما بحثت عنه هو رسمة الطفلة ، تأملت فيها من جديد، قمتُ لأتصل بالدكتوره أمال أعتذر لها عن أنفعالى عليها بسبب رفضها طلبي بالأرتباط بها .

ثم بحثت عن رقم والدة الطفلة ، وطلبت حضورها ، وحضرت بالفعل فى منتصف وقت العيادة ، وكنت أوصيت السكرتيره أن تُدخِلها فور حضورها ، أدخلتها ، ولم أستطع عندما رأيتها إلا أن أحملها ، وأحتضنها بشدة، وكأنى أريد أن أدخل فيها ، وأختبئ داخلها .

وتعهدت لأمها بأن أتكفل بكل مصروفات تعليمها حتى تكبر، وتصير ما يجب أن تكون عليه .

وتعهدنا أن لا يمنعها شئ عن الرسم ، وعلى أن لا تتوقف عن الرسم أبداً .

فلقد تعلمت منها درساً هاماً جداً .

تعلمت أنه ليس من الضروري أن تكون غنياً لتعطي ؛ فهي أعطتني أكثر بكثير جداً مما أعطيتها أنا .

فأنا أعطيتها دقائق معدوده من وقتى لأطلع على فمها ، وأكتب العلاج المناسب ليس أكثر من ذلك .

أما هى أعطتني ساعات لترسمني في لوحتها ؛ أنا لم أفكر كثيراً في أمرها ، وكانت بالنسبة لىَّ حاله من ضمن العديد من الحالات؛ أما هى فكنت أنا بالنسبة لها المُنجد ، والمُنقذ من ألآمها ، ولذلك صورتني في اللوحه في أماكن لا يسكنها إلا الأنبياء، والصديقين .

ولذلك فهى إعتبرتني واحداً من هؤلاء القدسين الأبرار .

فما كنت لأفكر قبل هذه اللوحه ما هو شكل الجنة ، والأبديه؛ وهل هى حقاً جنات ، وأنهار ، وأشجار ، وفواكه ؛ أم أن كلمة جنه هي كلمه إستعارية للدلاله عن الأماكن التى يحبها الناس ، ويحبون الذهاب إليها ، والجلوس فيها .

وإن وصفها بالجنات ما هو إلا محاوله للتعبير عن كل ما هو جميل ، ولم يخطر على فكر الناس ، ولم يجدوا له وصف في كل معاجم الكلمات ، والصور ، والفنون ، والرسم .

خُلاصة القول أن هذه الطفلة جعلتني أتذوق طعم الأبدية السعيده ، لأعمل للحصول ، والوصول لهذه الأبدية ، ولهذا المكان الجميل .

●●●

# الخلود

كنت قبلاً أحيا لنفسى فقط ، وكنت أرى أنى أنا من يجب على الجميع خدمته ، والحياة لأجله ، وكنت أهتم جداً بأن يُكتب أسمى فى تاريخ مهنتى ، وكنت أعكف كثيراً على العمل من أجل هذا الهدف ، وتخليد هذا الأسم ، ولكن إليكم الحقيقة .

الحقيقة هى أنه مهما فعلت فأنا أعمل ، وأُجد على أبحاث، وأكتشافات أكتشفها من سبقونى ، وإنى لم أكن المُكتشِف الأول لهذه الأشياء ، وأن الثورة التكنولوجية ، والعلمية حدثت قبلى بكثير ، أنا لم أكن نابغة هذا الزمان، أو أياً من هذا .

أنا مجرد طبيب أُشبه الآلاف من الأطباء ، وربما عشرات الآلاف حول العالم .

وربما هناك من هم أكثر منى تفوقاً ، وخبرة ، وما يفرق بينى وبينهم هو إنى أخذت فرصة ليس اكثر .

وإليكم حقيقة آخرى ، وهى إنى كنت قبل أن أخُط هذه الكلمات ، إنساناً مُتعجرفاً أنانياً أحيا لنفسى ، ولإرضائها فقط، وكنت لا أحب أحد غيرها ، ولا أقدر ، أو أصون أحد غيرها ، وكنت أطوع كل قدراتى ، وإمكانياتى لتخليد أسمى هُنا ، كنتُ عباره عن أشياء كثيره من الخطاء ، والجهل ، والضعف ، كنت

أحيا بفردية حمقاء غارقاً فى ظلمةٍ ، ظناً منى إنها النور ، وكانت حياتى تتجرف إلى الموت الذي ظننته الخلود .

ومشكلتى هى إنى تربيت ، وكبرت فى بيئة تشبة كل هذا السوء؛ لذلك لم أكن أهتم ، ولم يكن حولى من يهتم أو يجعلنى أهتم.

وأظن أن المجتمع ، بل المجتمعات كلها ، والعالم من حولنا يحيا هذه الفردية ؛ فهناك فردية الدولة ، وفردية المجتمع ، وفردية القبيلة ، والعائلة ، وفردية الأسرة ثم الأفراد .

فإنك إن دققت النظر جيداً فى تصرفات الناس من حولك تجدهم جميعهم ، أو أغلبهم على الأقل طبقيين ؛ يحيا كل منهم لخدمة نفسه فقط ، يهتم كل منهم بحاجتهُ وحده دون الآخرين ، ولا تعصم منهم من يهتم بالأخرين ، إلا الأنبياء ، والقديسين ، كلنا على هذه الصورة ، والشاكلة مهما حاولنا أن نُظهر عكس ذلك .

وأنا ما كنت لأعترف بهذه الحقيقة ، وأظن أنه إن قالها لى أحدٍ ما كنت لأقبلها منه ، ولكن قالتها لى الأحلام .

العالم الذي خلقه الله ليُصححنا ، وليرينا فى نُعاسنا ما لم نرضِ أن نراه ، أو نسمعه فى يقظتِنا .

قـررت أنـا أن أتـرك فكـرة تخليـد اسـمى ، وأن أجعـل الزائـد مـن وقتـى لخدمـة الأطفـال أمثـال طفلـة الجنـة ، نعـم هكـذا أسـميتُها طفلـة الجنـة ، صاحبـة الرسـمة ، والحلـم السـابق .

شعرتُ أن هناك أيادى غريبة تربط بينى ، وبينها .

أيـادى أصفهـا كأيـادى الشـمس ، التـى رأيتهـا تمتد للناس بالحب مـن قبـل ، وأردت أن أحصـل علـى الكثيـر مـن هـذا الحـب الدفـين داخـل قلـب هـذه الطفلـة ، وكل مـن يشـبهها ، وأن أكنـز منـه قـدر مـا أسـتطيع ، ولذلـك حـددت موعـداً فـى العيـادة بالمجـان للأطفـال ، الأطفـال فقـط .

أصبـح الآن لـدى إهتمامـات آخـرى غيـر أنفراديتـى بذاتـى، وأصبحـت أبحـث عـن حـبٍ أقتنيـه ، وأصبحـت أشـعر بجمـال الوقـت، أصبحـت أشـعر أن لـدى ورود أسـقيها ، وأهتـم بهـا ، وتهتـم لحضـورى ؛ فالمعامـل كانـت جامـدة لا صـوت فيهـا ، ولا حيـاة ، إلا صـوت الزجاجـات ، وأمبـولات ، وأكـواب ، وأقمـاع التحضيـر ، والميكروسـكوبات إلـى أخـره ...

الآن صـوت ضحـك الأطفـال ، وقبلاتهـم كنسـيم الصيـف ، وحبـات النـدى علـى تلـك الصحـراء القاحلـة مـن حياتـي .

فأنه حين يركض طفلٌ نحوك غير مبالٍ بشئ سوى أنه يرغب فى أن تحمله بين يديك ، وتحضنه ، ويُقبلك ، وحين يبتسم لك طفلٌ، وحين يدعو لك ، وحين يُحبك ، تشعر أن هذا خلود من نوعٍ آخر ، من نوعٍ غير مصنوع ، وغير مكتوب فى كُتب التاريخ .

أنه خلود مكتوب فى قلوب الناس ، وعلى أبواب السماء.

أنه الخلود المكتوب بطريقةٍ يصعب محوها ، أنه الخلود الذي لا يمحوه شئ بعده ، ولا ضجر فيه ، أو شر ، أو بُغضة .

ولذلك أحببت أن أستمر وأستمر فى هذا الطريق .

قد حلمت بالخلود قبل هذا الوقت بكثير .

وأذكر الحلم ، وكل تفاصيله ، ولكنى لم أكن أهتم بما رأيته فى الحلم ، ولم أفكر فيه ، أو أفهمه ، وظننته نوعاً من الوساوس التى تأتى الناس حين يفكرون فى أمرٍ ما لوقت طويل .

وكان الحلم كما يلي !

رأيت إنى ولدتُ من أدم أبو البشر فى مرحلةٍ قبل الطوفان الذى أغرق الأرض ، ولم ينج منه أحد إلا نوح ومن معه .

ورأيت إنى أختبئت فى مكانٍ لم تصل إليه المياة بطريقةٍ أقرب إلى الخُرافات ، والأساطير القديمة ، ونجوت ، ولم أمت مع الهالكين من البشر ، والكائنات .

رأيت نوحاً وهو يبنى الفلك ، ويدخل إليه ، ومعه كائناته.

ورأيته يخرج منه بعد إنتهاء المطر ، وتوقف ينابيع المياه المتفجرة من الأرض ، وتراجع البحار ، والأنهار، والمحيطات .

رأيتهم يتكاثرون من جديد ، ورأيتهم يبنون البرج العظيم فى بابل ، ورأيتهم يتحدثون لُغات كثيرة فجأة ، ولم أفهم أنا منها شئ فى وقتها ، ولكنى رأيتنى أعيش أزمنة تكفينى لآن أسافر لكل العالم ، وأتعلم كل لغاته .

رأيتهم يتفرقون في الأرض شرقاً وغرباً وفي كل الجهات بعد أن تبلبلت ألسنتهم وأبتدائوا يكتشفون القارات والاماكن ويخرجون من أرض العراق القديمة أو ما سماها الأثريون أرض الرافيدين ؛ ثم إلى ترشيش وجبال أسبانيا ومنهم من ذهب وأكتشف أفريقيا .... إلخ

ورأيتهم يستوطنون حيثما وُجد الماء والزروع .

ورأيتهم يتحاربون ، ويتقاتلون فى كل البلدان ، والقارات ، والقبائل .

رأيت ممالك عظيمة تُبيد ممالك آخرى ، ورأيت ممالك تقوم، وممالك تسقط .

رأيت أغنياء يفتقرون ، وفقراء يغتنون .

رأيت إبراهيم النبى ، وأحفاده واحداً تلو الآخر ، ورأيت كم كانوا يعانون التنقل من بلدٍ لأخرى .

ورأيت معظم ملوك العالم الذين قرأت عنهم بدايتاً من نمرود ملك بابل ؛ فرأيت الفراعنة فى مصر الضعيف فيهم والقوى رأيت كاموس وأحمس والرعامسه ورأيت تحتمس وكل الأقوياء ورأيت كيف خلدوا أنفسهم ورأيت أحدهم لم يخلُد هو ، ومركباته ، وخيوله ، بل سقطت ذكراه فى مياه البحر الأحمر الذى غرق فيه، ورأيت ملوك الكنعانيين في فلسطين القديمه ورجالها العمالقه أشداء الأجساد .

ورأيت سليمان الحكيم ملك إسرائيل لم يتبقى له أى شيء مما كان قد صنعه لنفسه ، ورأيت كل ذكراه و مبانيه وقصوره وقلاعه وجناته وفراديسه التى غرسها لنفسه تختفى ، وتتبخر .

رأيت ملوك بنوا قصورهم على قمم الجبال ، ولم تبقى هذه القصور ، ولا ملوكها .

ورأيت ملوكاً فى فلسطين القديمة ، وعمالقة ، ورجال ذوى بأس يُقتلون ، وينحرون كالأغنام .

رأيت أبطال اليونان ، وهم يقتلون بعضهم ، ورأيت هيكتور العظم ، وأخيلاس ، فكان هيكتور مدافعاً عن وطنه ، وكان أخيلاس لا يحب الآلهة ، ولا يهتم بالأوطان ، وكان لا يهتم إلا بأن يكون أسمه خالداً ؛ فرأيته يفتك بأعظم الفرسان ، ورأيته يموت بيد أتفه الفرسان .

رأيت الرومان ، ورأيت ملابسهم ، ودروعهم، وصفوفهم الذ لم يسبقها شبيه ، ورأيت تأنقهم .

ورأيت ثورات العبيد ضدهم ، ورأيت أبطال هذه الثورات ، وكيف أخمدها الرومان .

رأيت أوكتافيوس ، وأنطونيوس ، وكليوباترا .

وكم كانت كليوباترا جميله تتحدث معظم اللغات والألسُن .

كما رأيت نيرون ، وأشهد على أنه هو من أحرق بلاده، وإتهم خصومة فى فعل ذلك .

رأيته ، ورأيت كم كان مجنوناً ، وقاتل .

رأيت الناس تبدل أحجامهم ، وقوامهم ، وقامتهم ، وملابسهم.

رأيت دولاً تقوم على أنقاض آخرى .

ورأيت في التاريخ ملوك أذلوا العالم ، والناس .

رأيت من إختفت الشمس من وبِل ، ومطر سهامهم .

ورأيت من أطعموا الوحوش ، وسمك البحر ، وطيور السماء لحوم البشر .

رأيت فرسان العرب فى الجاهلية ، وإستمعت لمبارازتهم بالشعر، والكلمات فى أسواق عُكاظ .

رأيت حكام الدول الأسلامية من الخلافة الأموية ، والعباسية، والفاطمية ، والأيوبين ، والمماليك رأيتهم جميعاً يقتلون الواحد الآخر من أجل العرش ، والحكم ، والخلود

رأيت أسبانيا القديمة فكان أسمها لأصكوا ، ثم ترشيش ، ورأيت الأندلس كيف قامت ، وسقطت .

رأيت جنكيز خان ، وعلمت كيف أسس دولته ، ورأيت جيوشه، وإمبراطوريته أمبراطوريةً مهوله .

رأيت محمد على الألباني فى مصر ، ونابليون في فرنسا .

ورأيت صراعات فرنسا وأنجلترا ورأيتهم يتصارعون على أحتلال العالم .

ورأيت الأنجليزيون يقيمون إمبراطورية لا تغيب الشمس عنها بحسب وصفهم .

ورأيت الفرنسيون لا يرضيهم الوضع فيسعون لتحقيق طموحهم في تخليد دولتهم وأسمائهم .

ورأيت البلدان تسعى للتخلص من توطنهم فيها .

ورأيتهم في مصر يبنون السد ليحجزون به المياه ويخزنونها ؛ ورأيت الألاف يموتون من الديناميت المُستخدم في تفجير الجبال لبناء السد ؛ ورأيت السد يمنع المياه والطين ورأيتهم يقتلون أراضيهم المزروعه ثم يبحثون عن تعمير أراضيهم الصحراويه .

رأيت هتلر ، وكم كان يشبه نيرون المجنون ف طباعه .

ورأيت الألمان رجالاً أقرب في الشبه من الماكينات لا يتعبون من العمل ولا يتوقفون عن العمل .

رأيت أغلب ، وأشهر ملوك البشر ، وفرسانهم ، وعظمائهم .

رأيت الأرض تشكو ، وتنتقل من عصرٍ لعصر ، ومن زمنٍ لزمن رأيت العالم ، والأجيال ، والدهور كلها .

رأيت الناس تتبدل وجوههم من عزٍ لذلةٍ ، ومن ذلةٍ لعزٍ.

ورأيت كل تغيرات الملابس ، والفن ، والموضى .

ورأيت تطور التكنولوجيا ، والإكتشافات ، والإختراعات فى كل جيلٍ ، وزمن ؛ فرأيتهم يكتشفون الصوان ، ويصنعون منه سكاكين،

ثم المعادن ، ويصنعون منها السيوف ، ورؤوس النبال ، والرماح ، ثم رأيتهم يستخرجون الزيت ، ويكتشفون المنجانيق ، والبارود ، ورأيتهم يقطعون الحجر من الجبال ، أو يصنعونه لبِناً ، ويشيدون أبراج ، ومدائن ، وحصون ، وقصور ، وقلاع .

ثم رأيتهم يصنعون الديناميت ، والمدافع ، والدبابات ، والصواريخ، والطائرات ، وعابرات القارات ، والكواكب ، والغواصات.

رأيتُ سُفناً ، ومراكب كأنها بُلدانً تسير على المياه.

ورأيتهم يكتشفون فى الطب من مرحلةٍ لآخرى ؛ فرأيتهم يقطعون ، ويبحثون ، ورأيتهم يدفنون المرضى فى الرمال ، ويضعونهم في آبار معينة ، ورأيتهم يجففون الحبوب ، أو يطحنونها، ويصنعون منها أدوية ، وعقاقير ، ورأيتهم عند المصريين يكتشفون طب الأسنان ، ويقطعون فيه شوطاً كبير ، ورأيتهم يكتشفون التحنيط من أجل الخلود ، والبعث .

ورأيتهم يبنون المقابر عظيمة كالأهرامات ، والمعابد من أجل الخلود .

ورأيتهم يتدربون ليزيدوا قواهم من أجل تخليد أسمائهم .

رأيت العالم كله مفتون بالخلود رغم إختلاف طوائفهم وطرائقهم .

ورأيت أن الخلود فكرةً مجنونةً تفتك بصاحبها ؛ فأغلب من رأيتهم طلبوا الخلود بالسيف ذُبحوا ، وكل من سعوا للحصول عليه كرهاً أحترقوا بناره .

وكل من خلّد أسمه بالدم والقتل ؛ فهو قاتل ، وكل من خلّده في مبانٍ بقيت الحجارة ، ولم يبقى هو ، ولم يُعطى عمراً كعُمر الحجارة .

فهل خلد خوفو بانى الهرم الأكبر ؟

أو هل أنبعثت روحه من جديد كما أراد ، أو كما زعموا ؟

رأيت أسماءاً كثيره ذُكرت بعد موتها ، ورأيت أن من ذُكر أسمائهم لم يفدهم بشيء ، طالما لم يصلحوا ما يفيدهم ، ويصنعوه بأنفسهم .

رأيت أن لا أحد يُذكر ، ويُخلّد بالخير إلا من كان عمله خير، ورأيت أن لا خلود يُفيد صاحبه بعد موته ، إلا إن كان خلوده بالصالحات .

رأيتنى أعيش الدهور كلها على الأرض ، ورأيتنى أضجرُ الخلود، وأمِل العُمر الطويل .

ورأيت أن لا خير فى الأرض ، ولا خلود فيها ينفع بشئ، ورأيت أن الأرض كلها لا تنفع ، ولا تصلُح للخلود .

وأدركت أن الخلود ههنا هو الفناء ذاته ، وبعينه .

وأنـه إن أفنيـت عمـرك ، وجسـدك فـى فعـل الصـلاح فيهـا ؛ لربمـا تخُلـد فـى مواضـع آخـرى ...

أسـتيقظت علـى صوتـي كالكهـل الـذى عـاش كل الأزمـان أقـول لنفسـى هـذه الحكمـة ، وأسـمعني أرددهـا بصـوتٍ أجّش .

تذكـرت الحلـم حـين جلسـت لأفكـر ، وأتخـذ القـرار ، أم أعـدل عنـه لأنـه كان مـن الصعـب علـىَّ أن أتـرك الأبحـاث، وأوفـر وقتهـا للأطفـال ، وأتخـذت قـرارى بعـد وقـتٍ مـن التفكيـر .

وهـو أن أخلُـد فـى قلـوب الأطفـال ، وأمـوت فـى ذلـك الحلـم البائـس .

●●●

# الإختيار

لم تكن فكرة الخلود فى العالم كله إلا فكرة خادعة ، ولم يكن الخلود حقيقياً فى الأرض ، أو في هذا العالم ؛ فالذين سعوا للخلود بالعلم بقي العلم ، ولم يبقوا هم ، والذين سعوا للخلود بالسيف لم يبقى منهم أحد .

فالحضارات تتبدل ، والحكام ، والدساتير ، وأفكار الناس نفسهم ، ونفوسهم هى الآخرى تتبدل بين عشية ، وضُحاها .

وتبدلت أنا كما يتبدل كل شئ ، كنتُ أسوء إنسان رأيته فى حياتى ، لم يكن فى العلم كله من هو أسوء منى .

قد بدلتنى الأحلام ، والرؤى ، ووضعتنى على الطريق الذى أرى نفسي فيه راضياً ، فرحاً ، ساكن الضمير ، والسريره .

الأحلام !

لم أكن أظن أبداً أن حلماً يغير حياة إنسان ، وما جرى معى كان كمطرٍ مستمر من الأحلام الذى لم أكن أستطيع إلا لأن أخضع لتياراتها ، وأتبدل لما بدلتني له رؤياى،وأحلامى ، وهى تعد بالنسبة ليّ رؤى ، ولم أقصد أن أقول إنى نبياً ؛ فحتى الأشرار يحلمون أحلاماً من عند الله ، ولكنى اسميتها رؤى لأنها بدلتنى ، وغيرت تصرفاتى لحالة أفضل .

كنت فى حيرة مستمرة بعدما أوقفت أبحاثى ، قررت كثيراً أن أقسم الوقت الذى جعلته لخدمة الأطفال ، وأعود أتابع الأبحاث .

لم يكن هذا الفكر إلا محاولة جديدة للمماطله ، والهرب مما إتخذته من شوط فى الخدمة المجانية للمرضى ؛ فكثيراً ما تتخذ قرار ، وتظن أنك كنت مخطئ فى شئنه، أو ترجع لطموحاتك القديمة ، أو أن ما فعلته يكفى ، أو أن توفر من الوقت جزء لأحلامك ، وطموحك القديم .

وما هذا الجزء من الوقت إلا ليزداد شيئاً فشئ حتى يسرق وقت الأطفال كله ، وترجع لمساوئك القديمة ، وتجد أنك خسرت الأمرين، خسرت ما إدخرته من خلود حقيقياً فى عيون ، وقلوب، وأحضان الأطفال ، وأبائهم ، وكذلك أبحاثك التى لم تحققها حتى الآن .

فتظل مشتت الرأس حائراً بين الذهاب ، والعودة ، وبين الخلود والخلود .

ولذلك كان الحلم ليعدل ما أفسده الصحو .

علمت بهذا الحلم أن الله يحبنى ، وأنه يسعى ليُنجينى ، وأنه يفكر فىَّ أكثر مما أفكر أنا فى مصلحة نفسى .

نمتُ بعد يوماً من الأرق ، والتفكير ، والسهر لأحلم إنى أحلم، وهذا قليلاً ما يحدث ، أن تحلم أنك تحلم ، وأن ترى نفسك داخل

الحلم ، وأن تنفعل ، وتصحو ، وتنام ، وتتأثر داخل الحلم ، وتظل نائماً فى الحقيقة .

وكان للحلم داخل الحلم جزئين ، وكان تصوير الحلم كما رأيته إنى جالساً فى قارب صغير من الخشب فى وسط المُحيط تمتد المياه حولى من كل الأتجاهات أمتداد البصر ، وفى إنتهاء البصر من رؤية المياه تجد الجبال، ولا ترى العين إلا هذا المنظر لا شطئان ، ولا جُزر ، ولا مراكب ، أو سُفن ، أو قوارب آخرى ، ولا أحد غيري أنا ، وقاربي ، والمُحيط .

أحاول التجديف ، ولكن إلى أين ، أو إلى أى أتجاه ؛ فلا طريق أذهب نحوه ، ولا يُجدى التجديف نفعاً ؛ فكأن القارب لا يتحرك قيد أُنملة واحدة عن مكانه ، ولكنه يلتف حول نفسه فقط .

وكأن المياه ، والمُحيط لا حركة فيه ، ولا حياة .

وكان كل شئ ساكن فى مكانه لا صوت إلا صوت الرياح ، والبرد ، وتفكيرى ، حتى خُيل لى إنى أسمع نبضات قلبي كطرق الطبول ، وصرير أسنانى ، وتدفق الدم فى أوردتى من شدة الخوف، والبرودة ، والسقيع ، والحيرة التى كانت تصرخ كما يصرخ من تم أسره ، ولا مُغيث له ، ولا مُنقذ ، ولا يوجد بيديه ما يستطيع أن يفعله .

تتحرك المياه فى حركات ضعيفة ، وبسيطة كإرتفاف العين ، وضم الجفون ، وفتحها .

أنظر في صفحة الماء من طرف القارب ؛ فلا أرى وجهي في المياه ، ولا أرى أى شئ ، أرى الماء ، ولا أرى شيئاً غيره ، وتمر الساعات بلا حل ، ولا فكرة ، ولا أمل ، ولا شيء إلا الحيرة ، والملل، والضعف ، والخمول من كثرة الأفكار ، والألتفاف هنا ، وهناك .

ورأيتنى أفكر أن ألقى نفسي فى المُحيط حتى ينتهى ما أنا فيه، ثم أرجع عن هذه الفكرة .

سقطتُ بسبب الإغماء داخل القارب ، حيث أرتفع ضغطى من التفكير ، والحيرة ، وخرة قواى .

قتلتُ نفسى بالتفكير أكثر من مرة ، ولا مفر ، وقتلتنى الحيرة، واليأس من وجود حل ، أو مفارق للطريق ، وبقيت أغفوا، وأصحوا فى القارب ، ولا أنتظر إلا الموت من الجوع ، الخوف ، البرد .

فأتصبب عرقاً برغم البرودة ، وأرانى داخل القارب مرت بى أيام كثيرة ضعفت ، ونحف جسدى ، وتشققت شفاتاى ، حتى ملابسى تمزقت .

يهيأ لى إنى أسمع أحداً يناديني ، وأنظر ، ولا أحد كما أستمع إلى كل الأصوات ، والناس فى عقلى ، أصواتٌ كثيرة من يسخر منى، ومن يُحقرنى ، ومن يقول هذا ما تستحقه ، ولا تتوقف الأصوات ، ولا تتوقف الحيرة ، ويظل الوضع لا رجاء فى إنتهائه ، ولا حتى بالموت الذى يرفض أن يأتى .

أتألم من فقدان الأمل ، ولا أستطيع أن أنهى الحلم ، أو استيقظ منه .

فتألم جسدى ، وأنا نائم ، وتصببت خوفاً ، وتصبب رأسي عرقاً على وسادتى ، ولم أقدر أن أنهى هذا سواء بإنهاء النوم ، أو بوجود طريق ، أو جزيرة ، أو حركة، أو أى منفذ .

أشعر إنى مسجون داخل هذا الكابوس كالمحبوس فى زجاجة، ولا يستطيع الخروج من خلال عنُقها ، إزدادت زروة اليأس ، والضعف حتى وصلت إلى قمتها، ووصل الآلم ، والرعدة إلى حدٍ لا يحتمل ، وأظن أنه لا طاقة لبشر أن يصبر على هذا .

حتى استيقظت أخيراً من الحلم داخل الحلم ، ولم أستيقظ في الحقيقة ، ولكن جسدي بداء يشعر بالطمأنينة ، والراحة فلقد خرجت أخيراً من هذا المأزق ، ولا أظن أن هناك شعور بالراحة يضاهى هذا الشعور ، أو فرحة تساوى فرحة التخلص مما

كنت فيه، والتأكد أن هذا المأزق المُخيف ما هو إلا مجرد حلم؛ فالحمدلله مازلت هنا ، ولم أتخذ قارباً ، ولا سفينةً ، ولم أُبحر فى أى مياه أو مُحيط ، ولم يكن الأمر إلا أحد أحلامى ، ولكن هذه المرة كان مُخيفاً ، مُخيفاً جداً ، أن ترجو الموت للتخلص من الرعدة ، أو ترجوه لإيقاف الآلم ، ولعدم وجود حلولٍ آخرى ، ولا تستطيع حتى أن تحصل عليه.

إن الأمر آلمني حقاً ، ولكنه قد أنتهى .

عدت للنوم داخل النوم ، وداخل الحلم فأنا لم أستيقظ من نومى الحقيقي حتى الآن مطلقاً .

وعدتُ أحلم ، ومن جديد وجدت نفسى داخل قارب ، ووجدت أن القارب داخل نهر عظيم ، ووجدت أن للمياه طعم عزب يروى الجسد ، والروح .

نظرت للمياه من طرف القارب لأرى إنعكاس وجهى ، وإنعكاس صورتى فى الماء ، والذى جعلها صافية جميلة ، كنت أنظر لوجهى فى صفحة الماء كالذى لم يرى نفسه من قبل ، أو كالذى تغير فيه شئ واضع ، وحالة أجمل مما كنت عليه .

بدأت أسترجع الحلم السابق ، وأنتابنى الخوف ، والشك لذلك تفقدتُ القارب جيداً ؛ فوجدته يختلف تماماً عن القارب السابق

كما أن المياه تختلف ، وأيضاً يوجد الآن شجر ، ومروج كثيفة حول المياه كما أن هناك أيضاً مراكب ، وسُفن ، وقوارب آخرى يسيرون إلى جوارى، ويتحرك كل منهم فى إتجاه يعرفه جيداً ، وفى هدوء .

ويسيرون نحو أتجاهاتهم فى إنتظام ، وبلا توقف ، أو تراجع، أو أى ألتفاتة لأى إتجاه آخر ، بل أرى أن كل منهم يعرف طريقه جيداً ، ويسير فيه بلا تخازل ، أو رجوع ، وكنت أنا أتفقد كل شئ من حولى فى طمأنينه عجيبه ، وسرور لم أشعره من قبل .

أرى الألوان من حولي زاهية لدرجةٍ جميله ، وأرى الأشجار تتدلى ثمارها فى نضجٍ متساوى يريح العين ، وأرى الفرشات ، والزهور ، والورود ، والعصافير ، والكائنات كل ما أعرفه ، وما لا أعرفه رأيتهم جميعاً يسيرون فى إتجاه واحد .

وكأن هذا الإتجاه معروف ، ومحفوظ ، ومدروس جيداً بالنسبة لكل منهم ، وأنى أنا فقط الذى لم يكن يعرف وجهته ، والذى يقف فى حيرة مما جعلنى لم أفكر كثيراً حتى وجدتنى أتخذت قرارى بأن أسير فى نفس الإتجاه الذى يسيرون نحوه .

وكانت الأشياء ، والألوان ، وسطوع الشمس مطمأنين جداً .

وصلت أخيراً لنهاية المياه ، وخرجت كما خرج من قبلى إلى الشاطئ ، وعندما خرجت إلى الشاطئ وجدت أن كل الكائنات

غيـر البشـرية تذهـب فـى إتجـاه واحـد ، وأن كل بشـرياً يذهـب فـى إتجـاه طريـق لا يسـلكه أحـداً معـه.

وفـى ذلـك الإتجـاه مُفتـرق يـؤدى إلـى طريقـين يجـب علـى كل واحـد منهـم أن يتخـذ القـرار فـى أى طريـقٍ منهمـا سـوف يسـلك مـع الأقـرار والإلتـزام بـه ، بـل مـع العلـم أنـه عندمـا يتخـذ قـراره بالسـير فـى طريـقٍ منهمـا وسـلك أول خطـوة سـوف يختفـى الطريـق الآخـر نهائيـاً مـن مـوُضعـه ولـن يكـون هنـاك سـبيل للرجـوع إليـه لذلـك يجـب عليـه أن يُمعـن النظـر جيـداً ليختـار بدقـة ، وعنايـة ، وهنـاك قائمـه تشـرح كل طريـق مـن الطريقـين ، ومُعطياتـه ، ونتائجـه ، ومخاوفـه ، ومتاعبـه ، وراحتـه ، ومتعتـه ، وأفراحـه ، وأحزانـه ، وعليـك أن تقـرر سـريعاً فـى أقـل مـن سـبعة دقائـق ، ثـم تختـار .

والسبعة دقائق هي المدة التى مُنحت لى لكى أتخذ قرارى .

وبـدأت أنظـر حولـى فـى ألتفاتـات سـريعة متلهفـاً أحـاول أن أحصـل علـى مسـاعده ، ولكـن مـا مـن أحـد .

أقتربت المهلة الممنوحة للتفكير أن تنتهى ، وأتخذت القرار بأن أتقدم لأحد الطرق ، وكان الأقرب لأقدامي أن أخطوا فيه ، وكان هو الطريق الذي أنا واقفاً أمامه مباشرةً.

وأخذت أسير فيه ، ووجدت بدايته مُقفرة ، ومُتعبة بعض الشيء ، وأن الحيرة أنتابتنى من جديد بأن ألقيت اللوم على نفسي لأنى تسرعت ولأنى لم أختر الطريق الآخر، ولكن كما علمت أنه لا رجوع ولا تبديل فى الطريق .

قررت أخيراً أن أكمل هذا الطريق أياً يكُن ، وأن أحتمل، وأصبر على ما قررته .

حينما فكرتُ في هذا الأمر بهذه الصورة ، وقبل أن أخطوا خطوتى التالية ألقيت نظرى إلى الوراء لأرى ما قطعته من المُضى فى هذا الإتجاه .

وألتفت أولاً بإستهتار ، وكان جسدى كله للأمام محولاً رأسي، ونظرى فقط للوراء لأنظر ، وأرى ما قد جعلنى مصمماً على أن أكمل ، وأستمر فى هذا الطريق، ولا طريق غيره ، ما جعلنى ألتف بكامل جسمى من الدهشة لأتحقق مما رأيت .

فرأيت أن كل خطوةٍ خطوتها أنبتت مكان قدمى زهوراً لم أرى مثلها قط ، ورأيت أنه كلما وضعت قدمى على الأرض ، ورفعتها تنبت مكانها الزهور ، ورأيت أن هذه الزهور تنتج روائح ، وعطور لا أظن إنى شممت أعظم منها مطلقاً ، ولذلك قررت أن أمشى بقدمى على كل رُقعةٍ تراها عينى لكى تزداد الزهور ، ويزداد تأجج العطر .

ثم أستيقظت من الحلم داخل الحلم ، واستيقظت فيه عارفاً أى طريقٍ سوف أسلك ، وأى شعور بالراحة قد حصلت عليه .

وعلمت أن الطرق المملوئه بالشوك والتعب في بدايتها ، والتى تبدو مقفره عند النظر إليها للوهلة الأولى ، والتى يظن الإنسان إنه قد يخسر إن عبر فيها ؛ هى الطرق الأفضل ، والأكثر ربحاً .

وأنه لا يوجد على الأطلاق عملاً واحداً من أعمال الخير ، والمحبة ليست مكتوب ، أو مُسجله عند الله ، وأنه لن ينسى أبداً أياً منها ، ولو كان كلمة طيبة ، أو إبتسامه ؛ بل أن كل ما تفعله يُرَد لنا أضعاف .

وأن ما نفعله من أعمال الخير تجاه الناس يتعامل الله معه، وكأنه تم معه هو شخصياً ، وكأن الله ياتي مُتخفياً في صورة الفقراء، والمحتاجين ليُجرب الأغنياء فيما أعطاهم من مال، وغنى؛ وهل سيكنوا أسخياء معه ومع عبيده المحتاجين ، أم سيكنوا غاليين أيديهم غير أمناء فيما أوكلهم عليه ؟

وعلمت أن ما يعطينا الله من مكاسب ، وأرباح له حق فيه يجب أن يحصل عليه عن طريق الصدقات ، والرفق بالآخرين، وأنه كلما كان الإنسان أميناً فيما أوكله الله عليه زاد الله له العطاء، ليزيد هو أيضاً الإهتمام بعبيد الله المساكين .

●●●

# أنا وهو

شوط طويل جداً من العمل سنوات وسنوات لم أعمل شئ، ولم أحرص على شئ سوى العيادة ، والأبحاث ، والدراسات ، أقتربت من الأربعين أركض ، وأركض وراء أبحاثى ، وطموحى من كتابٍ إلى كتاب ، ومن بحثٍ لآخر ، ومن تجربة لتجربة ، ومن العيادة إلى المعمل .

لم أفكر فى شئ سوى ذاتى ، وعلو شأنى ، لم أهتم بجسد غير جسدى ، ولم أهتم بأحد غيرى ، نفسى فقط .

هل كنت أحتاج لكل هذه الأحلام المُرعبة ، وهل كان من اللازم أن أمّر بكل ما مررت به من أفكار ؟

هل أنا حقاً أنسان سئ إلى هذا الحد ؟

هذا ما بدأت أن أتحدث به إلى نفسي عندما جلست معها جلسةً حقيقيةً ، وللمرة الأولى .

سألتها إن كنت سئ إلى هذا الحد

أما من أحدٍ يوقفنى ؟

أما من أحدٍ يلفت أنتباهي ؟

حاولت بهذا السؤال أن أبعد اللوم عنى قائلاً : لأبد أنه كان من الواجب أن ينبهنى أحد ، ويصارحنى بحقيقة ما أنا عليها .

ما لبثتُ أن أنفضَ من أسألتى هذه ، وإلقاء اللوم بعيداً عني حتى تذكرت بعض المواقف التى أخرستنى ، تذكرت مثلاً أنه حين كنت شاباً صغيراً كانت أختى إن طلبت رأيٍّ فى فستاناً تلبسه ما كنت إلا لأهزاء بها ؛ وعندما كانت تلفت إنتباهى لأمر خطأ قمت به سواء فى حوارى مع أحد ؛ أو ردودى على والدى ووالدتى ؛ فكنت أجاوبها أن لا شأن لها بالأمر ، وأنه من الأفضل لها أن تهتم فيما يخصها ، وألا تتدخل فيما لا يعنيها .

كنت في هذه الذكريات أصارح نفسي ، ثم أهرب من المُصارحة.

إن هذه الأمور كلها تحدث فى كل البيوت ، وأنها أمور صبيانيه .

ولكن لأبد أن أسلوبى هذا مع أختى مما كون داخلها ألا تتدخل أبداً ، أو إنى لا أقبل كلامها ، أو تعليقاتها على أيٍ من الأمور التى تخصنى .

فأصبحت لا تتدخل أبداً سواء فى الأمور الكبيرة ، أو الصغيرة، وأصبحتُ فى عينيها مغروراً ، ومتكبراً لا أسمع لأحد، ولا أهتم لرأى أحد مثلما سمعتها تقول عنى عندما حلمت إنى توفيت (الحلم الثاني ) .

ثم ألقيت اللوم على أخى ، نعم أن اللوم كله من نصيبه أنه أخي الأكبر ، وكنا نعيش فى نفس البيت ، وننام معاً فى نفس الغرفة ، وليست هناك للمرء أقرب من أخاه الذي تربى ، وكبر إلى جواره .

كان من واجبه أن يلفت إنتباهي ، وكنت سأستمع له ، وأقبل منه بكل تأكيد ...

ثم تذكرت حينما كان أخى يلبس قميصاً من قمصانى ، أو حذاء من أحذيتى كيف كنت أغضب منه ، وأثور عليه ألا يكرر هذا الأمر ، وكان أسلوبى معه يصنع فجوة بيننا ، ومسافة لا يجرؤ أخى على أن يتعداها ، وما كنت لأسمح له إن حق القول .

ثم جاء صوتً سريعاً بداخلى يرد على كل هذا .

كُن شجاعاً ، ولا تهرب من كِبرك لكبرٍ أكبر ، ولا تُعالج مشكلاتك بإلقاء اللوم على غيرك .

أنها مشكلة كل بني البشر أن لا أحد يرى اللوم في ذاته أو الخطأ ؛ فالجميع مبررين فى أعين أنفسهم ، وليس من المهم أن الخطأ قد حدث بالفعل ، ولكن المهم فى أعيُننا أننا لسنا المخطئون.

هـل حقـاً كنـت سـأقبل مـن أخـي أى كلام ، أو تدخُـل فـى شـئونى، الحقيقـة هـى إنـى لـم أتقبـل ، ولـو حتـى كان الـكلام مـن والـدى ، أو والدتى.

ثم كان السؤال الذى يكشفنى إلى حد العراء .

أنه لماذا لم يكُن لى أصدقاء منذ زمن بعيد ؟

لماذا لا يوجد إلى جوارى أحداً أقول عنه إنه مُقرب منى، أو صديق العمر ؟

فكانـت الأجابـة القاطعـة هـى أن الجميـع نفـروا مـن إسـلوبى، ومنـى ومـن عـدم إهتمامـى إلا بنفسـى فقـط .

فأنـا كنـت سـئ جـداً ، حـاد الطبـاع حتـى إنـى كنـت مُسـتعداً أن أهـين أحدهـم إن داس بـدون قصـد علـى طـرف حذائـى المُلمـع ، ولا أقبـل منـه إعتـذار ، أو تبريـر ، ولا كنـت لأعتـذر ، أو أجـد الخطـأ فـى تصرفـى ، أو إنـى أعطيـت للموضـوع حجمـاً أكبـر مـن حجمـة .

أإلى هذا الحد كنت غارقاً فى سوء التصرف ، وردود الأفعال؟

أإلى هذا الحد خاصمني الجميع وقاطعوني ؟

تجمّعـت علـى رأسـى كل ذكرياتـى السـيئة كل ردود أفعالـى عندمـا أمسـكت تلفونـى لأُقلـب فـى الأسـماء ، والأرقـام المدونـة فيـه ، وكلمـا قـرأت أسـم تذكـرت مُشـكلةً جعلتـه قاطعنـى .

مـررت علـى الأسـماء واحـداً تلـو الآخـر لأكتشـف أن ولا واحـد مـن كل مـن قابلتهـم لـم أتسـبب فـى إهانـة لـه ، أو موقـف أحرجـه .

ولا واحد ؟!

نعم ولا واحد !

كنـت سـئ مـع جميعهـم ، وكنـت أقـول أنـه مـن الأفضـل مُقاطعتهـم كـي لا يعطلنـي أحـد ، أو يوقفنـى عـن مـا أصبـو إليـه ، وأتمناه لنفسـى، وأن الصداقـات آتيـة لا محـال ، وأنهـم هـم مـن سـيبحثون عنـى لإرضائـى ، وكسـب صداقتـى عندمـا أحقـق مـا أسـعى إليـه .

لا مهـرب لـك يـا صديقـي مـن أن تعتـرف أنـك أخطـأت فـى حـق نفسـك ، وأخطـأت فـى حـق الجميـع ، كُـن شـجاعاً ، وصادقـاً لعلـك تنقـذ شـيئاً ممـا أفسـدته ، ولعلـك تنقـذ نفسـك ممـا أنـت فيـه .

وما أفعل لأنقذ نفسى ، ولأنقذ ما أفسدته ؟

ألم يكفي ما فعلت فى عيادتي ؟!

أولـم يكفـى إنـى أوقفـت أبحاثـي ، وهدمـت مشـروع ، وحلـم عُمـري.

لا لـم يكـن كافـى ؛ فبإمكانـك أكثـر مـن هـذا ، ولنكُـن أكثـر صراحـةً أن أبحاثـك أمـر قطعـت فيـه سـنوات كثيـرة ، ولـم تصـل لشـئ فيهـا حتـى الآن .

وأن اليوم المجاني فى عيادتك أمر فعلته من أجل المصلحة، وليس من أجل المحبة ، والرغبه فى العطاء، أم أنك نسيت ما فعلته لكسب الرضا من الدكتوره أمال .

أما من أحد يُسكت هذا الصوت ، وهذه الأفكار ؟

وهل وصلت إلى حد أن أتهم نفسى بالفشل فى كل شئ فى الأبحاث ، والصداقة ، وحتى فى العطاء !

فأجبت نفسى ألعله لم يكن فشلاً ، ولكنه طريق خطأ .

سنوات من الطريق الخطأ أولم يكفي ؟

أولم نبحث معاً عن طريق صحيح يجعلك تفرح ، وتسعد به ؟

أولم ترضى أن تقر بأخطائك حتى الآن ، وبعد كل هذا ؟

كنت أشعر أن أحداً آخر معى فى الغرفة ، وأن هذا الشخص يريد أن يغير شئ ما ، وأنه يتحدث معى كصاحب سلطة ، وسلطان على تصرفاتى ؛ فقد كان يُعنفنى ، وينتهرنى ، وما بقي له من سلطانٍ علىَّ إلا أن يضربني ، أو يضع القيود فى يدىَّ ورجلىَّ ، وأنه لم يكن بإستطاعتي أن أُسكته ، أو أصمم أذناى عن سماعه.

ورفعت عيني وإذ به حقاً جالساً قبالتى !

فقد كان يُحدثنى ، وهو جالساً أمامى فى بدلةٍ أنيقة جداً يضع ساقاً على ساقٍ يأمُر ، ويُنهى فىَّ بالصمت ، والفهم .

كنت أتخيله ، أو أراه حقاً لا أعرف ، ولكن ما أعرفه هو أنه كان يُشبهنى تماماً فى الشكل ، والهيئة ، والصورة ، وأنه يتحدث، وأستمع إليه داخلى ، وليس بأذُنى الخارجية أى إنى أرى شفتاه تتحرك ، ولكن الصوت يدوى داخلى ، وليس فى كل الغرفة .

أخذت أنظر إليه ، وأتفرس فيه كثيراً ، وأسأل نفسى ، وأسأله من أنت ، وكيف تعرف كل هذه الأشياء عنى ؟ من تكون ؟ وكيف تُشبهني بكل هذه الدرجة ؟ وكيف أتيت إلى هنا أقصد إلى غرفتى ؟ وكيف تُحدثني بهذه الجُرئة ؟

كانت كلماته التى أسترحت إليها إهدأ لتفهم !

وأعلم أنها فرصتك لتُصلح ما أفسدته ،

جيد أنك عدتُ إلىَّ ...

أقصد رجعت لنفسك ، وعقلك ، وأعطيت نفسك الوقت لنُفكر أقصد لتُفكر .

كان يلتف حولى ، وكانت شفتاه تتحرك ، ولكن لا تصدر صوت؛ فأن الصوت كما ذكرت سابقاً يأتى من داخلى ، وكان يضع يده على أكتافى ، ولكنى لم أشعر بوزنٍ لهم .

الآن أنا أعلم جيداً من يكون إنه ما يسمونه النفس الداخليه، أو الضمير .

الذى من كثرة التفكير شعرت إنه خرج ليُرينى نفسه ، ويفضح لىَّ أمورى ، وتصرفاتى .

أعلم أن ما أقوله يظنه البعض أنه مجرد أوهام ، أو خيالات .

وهو بالحقيقة ينتابه بعض التخيُل ، والتخيُل فيه هو أنه لا جسد للضمير ، أو صورة ، أو ملابس سوى التصرفات ، ولكنى ربما شعرت هذا ، أو رأيته من إرهاق الفكر ، أو ربما يصرخ ضميرى داخلى لأنها فرصته ليُصلح طريقى .

وكانت كلماته إلىَّ ، أو كلماتى إلى نفسى تعلو قائله :

هل تظن إنك حلمت كل هذه الأحلام المُنظمة ، والمُرتبة إلا لأمر مقصود ، وهل تظن أنك مهما حاولت أن تُسكتنى أنك تستطيع أن تفعل هذا ؟

ما وُضِعتُ داخلك لأصمت .

وما وُضعت داخل الناس لأتساهل معهم ، وأرضى عن أخطائهم .

أنـا هنـا الآن لنتواجـه أنـا وأنـت ، ولآن أصارحـك بـكل مـا لـم ترضـى أن يُصارحـك بـه أحـد غيـرى مـن قبـل .

وأن هـذه هـى فرصتـك لتصلـح شـأنك ، أن تسـتمع إلـىَّ ، وأن تسـتمع جيـداً ، وتفهـم ، وتعمـل بمـا أقولـه لـك .

**أولاً :** يجـب أن تعلـم إنـك لـم تُخلـق فـى هـذه الدنيـا ، وتأتـي إلـى العالـم لتكون وحـدك ، أو لتعيـش لنفسـك فقـط ، وأنـك تحتـاج للنـاس كمـا يحتـاج النـاس إليـك .

فـإن كان كل النـاس أطبـاء ؛ فمـن سـيخبز الخبـز ، ومن سـيزرع القمح، ومـن سـيبني البيـوت ، ومـن سـيصنع السـيارة التـى تركبهـا ، والحـذاء الـذى تلبسـه ، والقميـص ، وأدوات ، ومُعِـدّات الطـب ، إلـى أخـره ...

**ثانيًـا:** يجـب أن تعتـرف إنـك أخطـأت إلـى نفسـك إذ أبعـدت الجميـع عنـك بكبريائـك ، وغطرسـتك ، وأنـه لـو كان النـاس عاملـوك بمـا عاملتهـم مـا كنـت لتتقبـل نظـرة تعالـى واحـدة مـن أيـاً منهـم ، ودليـل علـى هـذا أنـك أهنـت الدكتـوره أمـال عندمـا رفضـت عـرض خطبتـك عليهـا .

**ثالثًـا:** يجـب أن تتعامـل مـع الآخريـن بحـب ، وليـس بتخـوف؛ فأنـت قـد أصلحـت العلاقـة مـع أخوتـك عندمـا خُفـت أن تمـوت، ورأيـت رد فعلهـم عندمـا حلمـت بموتـك ، وأصلحـت أمـورك مـع

البواب ، والسكرتيره لنفس السبب ، وكذلك السيدة سميحة عبد السلام عندما حلمت بسمنتك ، والدكتورة أمال عندما حلمت بالزهايمر ، والمخبول إلى أخر كل ذلك ، وكل ما رأيته من أحلام ، وكوابيس ، وأصلحته من أجل الخوف ، وليس الحب .

والآن يجب أن تُقدم الحب من أجل الحب ، وليس من أجل إزالة الخوف ، ولا ألومك بل إنها كانت خطتى ، وخطوتى الأولى .

والآن علينا أن نتعامل مع الآخرين بحبٍ ، وأن نُعطى بلا سبب، وبلا خوف ، وأن ننتظر الحب فى المُقابل ، والحب فقط .

حاولت ألا أستمع إليه ، أو أن أسكته ، أو أطرده ، ولكن من يقدر أن يطرده وهو في الداخل ، في أعمق نقطة ممكنه من أعماقنا .

حاولت أن أبتعد أنا عنه بأن تركت الغرفه ، وخرجت لإعداد القهوه ، وأتمشى في الشقه من غرفة لآخرى .

ولكن يبدو أنه موجود في كل الغرف ، وأينما ذهبت هناك أجده .

أرهقت من كثرة الكلام ، ومحولات الهرب من أمامه ، ولم يرهق هو ، أو يتوقف عن الوصول إلىَّ في كل مكان وُجِدت فيه .

●●●

# أكمل حديثه وأعطاني الحل

كنتُ مُتَعجِباً جداً من معرفته كل الأمور ، وكل الأشياء عن حياتى .

أهو حقاً يعلم ما داخلى إلى هذا الحد ؟

كيف يعرف كل شئ على حقيقته ، أكثر من سؤال دار بذهنى، والحقيقة إنى لم أمنع نفسى عن أن أسأله ، وبكل وضوح .

كيف تعرف كل هذه الأشياء عنى ، ومن أين لك أن تعرف حتى أحلامى ، ومن أخبرك ، وأدراك بكل هذا ؛ فأنا لم أقُص لأحد شئ من هذه الحكايات كلها !

ليُجيبنى وبكل وضوح !

حتى الآن لم تفهم ، حتى الآن لم تعرفنى ، أوحتى الأن لم ترضى أن تعترف أنك تحتاج لىَّ .

أم تظن نفسك فى قُمقُمٍ ، ولا يستطيع أحد الوصول إليك ؟

فقلت له ما سألتك لتُجيبنى بسؤالٍ آخر .

فأجاب ، لقد أخبرتك سابقاً ، وسأُخبرك مرةً آخرى إنى أنا ضميرك ، أنا الجزء الذى وضعه اللّه فى كل بنى البشر ليحثهم على عمل الخير .

أنا الجزء اليقظ ف الإنسان النائم ، وأنا جهاز الإنذار الذى يُحذِرك من السقوط ، أو الدخول فى أماكن لا عودةَ منها ، أنا جزء يستطيع بعض البشر إخمادى داخلهم إلى الأبد ، وأن لا ينصتوا لصوتى حين أتكلم ، أو أن ينصتوا ، ولا يعملوا .

وما وُضِعت داخلك لأُرغمك على أى شئ ، أو لأغير طُرقك غصباً ؛ فأنت حُرٌ فى كل إختياراتك .

بينما أنا وُضعت داخلك لأذكرك فقط بأشياء تحتاج إليها، وربما تظن إنك فى غنى عنها ، وما أنا إلا صوت يرن ، ويدوي داخلك ، لىَّ بعض السلطات ، ولكنها وإن كمُلَت صورتها ، وبلغت أوجها فى أعماق عقلك ، وقلبك تظل كل سلطتي مجرد صوت تسمعه ، وتحدث به نفسك عندما تخلو ، أو ترجع إليها ، وأنا سبب التردد عند الناس فى إختيارتهم ؛ فلا يقدم أحد إلى القتل إلا ويتردد قبلها ، ولا يقدم أحد إلى السرقة ، أو الظلم إلا ويتردد قبلها، ولا يشرع أحدهم على خطأ ما إلا ويتوقف قبلها لبضع ثوانٍ ، أو لحظات بسيطة أتكلم أنا إليه فى هذه المدة القصيرة ، وأما أن يرجع عن ما أقدم عليه ، وأما أن يتابع جريمته .

وأنا لا أنام ، وأعمل أحياناً عندما ينام الناس .

وأقتنص الفرص ، والأحداث من حولك لأحدثك من خلالها، وأستغل أى فرصة ، وأى وقت يمكننى أن أحدثك فيه لآحدثك بلا تردد ، أو هواده .

وإن لم أجد فرصة ، أو وقت أحدثك فى نومك ، نعم فى نومك، أتريد أن تعرف ، وتفهم كيف أعرف حكاياتك ، وأحلامك ، إن لم تكن تفهم حتى الآن ؛ فسوف أخبرك بكل شئ .

أنا معك فى كل وقت ، وفى كل مكان ، ولم أستطع أن أحدثك قبل هذه اللحظة بوضوح ، أو بطريقة مباشرة .

فلم تُعطيني أنت أى فرصة ، أو وقت ؛ فلم أجد أمامي سوى أن أعمل معك أثناء نومك ، ومنها بدأت أدرس كل مواطن تخوفاتك، وقلقك .

والحقيقة التى لا أستطيع أن أخفيها عنك أنك إنسان جيد، وطيب إلى درجة عالية ، ولكنك لا تعرف هذا ، ولا تستدر إليه ، وما كان أمامى من طرق إلا أن آتيك خلال الأحلام .

فكنت أنا من صنع لك حلماً تراه ، وتشعر به ، ويضعك محل الآخرين ، ويُشعرك ببعضٍ من شعورهم ، وضيقاتهم ، وإحتياجهم.

طريقة وجدت أنه من الممكن أن أخبرك بكل ما أريد أن أقوله لك من خلالها .

وبدات معك من أن جعلتك تشعر فى حلمك إنك شجرةً ، وكنت أنا الأربعة أفراد الذين رأيتهم يتجاذبون أطرافك ليمطوها، ويحولونها إلى جذورٍ ، وأغصان ، وعلمتك حينها أن تشفق على الأشجار ، والطبيعة .

ومن بعده عندما أسأت ، وتشأمت من حالة وفاة الشاب قرب عيادتك ؛ فأريتك ماذا سيحدث لك إن كنت مكانه وجعلتك ترى اِسمك ، وصفتك وصلة رحمك كلها أشياء ستسقط إن لم يكن هناك من يُحبك .

ثم حلم السمنة ، والزهايمر ، والرجل المخبول ، والخلّود إلى أخر كل ما جعلتك تراه ، وتشعره ، والحقيقة يا دكتور أسامه أنه كان أخر طريق أمامى ، فكرت أنه لن أحاول معك مرةً أخرى إن لم ينجح هذا الطريق ، وشعرت بسعادة رهيبة عندما رأيتك .

خفت من أن تكون قد تحولت لشجرة ، وأحسست بنشوةٍ ما بعدها نشوة حين رأيتك تتصل بالأستاذة سميحه عبد السلام ، وتحاول أن تُلطف علاقتك بها .

وأشياء كثيرة فعلناها سوياً جعلتنى سعيداً بك ، وجعلتنى أستمر فى خطتى .

ولكن جئتك حينما أحسست أنه ينبغى أن أتحدث معك بوضوح؛ فأنت كنت سريع الأستجابة لكل ما أعددته أمامك من خُطى .

والآن أريد أن أذكرك ببعض الأحداث ، والأشياء التى ربما تساعدك على أتخاذ القرار المناسب .

ولنبدأ من نقطة البداية حينما كنت طفلاً صغير فى السنة الأولى للدراسة الأبتدائية !

أتذكر ؟

فى إحدى المدارس القريبة من المنطقة القديمة التى كنت تسكن بها ، وبعد حوالى شهر ، أو شهرين من الدراسة بدأتوا كمجموعة من الأولاد ، والبنات تعيرون أحدى زميلاتكم أن أمها تعمل فى المدرسة كعاملة نظافة .

وكان دورها تنظيف الحمامات ، وأنشأتوا أغنية تغنوها حين أكتشفتم أنها أم زميلتكم ، وكنتم تغنوها كلما رأيتم البنت .

وكانت البنت صغيره جداً ، آه البنت المسكينة تبكى ، وتصرخ، وأنتم تنتشون من السخرية منها ، ومن معايرتها ، لم تتوقف دموعها، أو صرخاتها ، ولم تتوقفون عن ترديد أغنية التعيّر تلك .

وذات مـرة أخـذتم تغنـون أغنيتكـم أمامهـا ، وكلمـا مشـت مـن جواركم لتجلس فـى مـكانٍ آخـر تابعتموهـا مـن موضـع لآخـر ، ومـن ديسـك لديسـك ، حتـى ألقـت بنفسـها فـى نهايـه الأمـر مـن نافـذة الفصـل المُطلـة علـى الشـارع لتهـرب مـن معايرتكـم .

سـقطت علـى الأرض مـن الطابـق الرابـع، وإنتهـت حياتهـا لتسـمعوا بعدهـا بيومـين أن أمهـا قـد ألقـت بنفسـها مـن سـطح البيـت الـذى تسـكن فيـه .

وكانت هذه نتيجة أغنيتكم ، ومعايرة البنت المسكينة .

هـل تذكرهـا ، وهـل إنتبـه أحدكـم إنـه سـبباً فـى هـذه الحادثـة؛ ربمـا ، ولكـن في النهايـة جثتـان نتيجـة موجعـة ، جثتـان تم ألقائهـم بـين أكـوام الجثـث التـى لا أهـل لهـم ، ولا أحـد يهتـم بهـم ، أو يذكرهـم، أو يسـأل ، أو يدافـع عنهـم .

أنـت لـم تكـن تذكـر القصـة حتـى ، ولـم تكـن لتعطيهـم دقيقـة واحـدة مـن التفكيـر ، ومـن هـم حتـى لتفكـر بهـم ، لقـد كنـت طفـلاً حينهـا ، ولـم تكـن تفهـم كل هـذا .

لا عليك ، تعالى إلى قصةٍ آخرى !

هـل تذكـر شـاباً تـراه فـى طريـق عودتـك ينـام تحـت الكبـري في ملابـس ممزقـة ، ومهلهلـة ، ذلـك الشـاب الـذى رأيتـه أول مـرة في

طريق الشجرة صاحبة الحلم الأول ، والذى كلما رأك لم يتوقف عن النظر إليك ، ذلك الشاب الذى تظنه ساكراً ، أو مجنون .

قولت له أنني تذكرت الشاب ، وصورته ، وأول مرة رأيته فيها نعم هو من ينام في الطريق المؤدى للشجرة التى حلمت بها حين مررت جوارها .

ولكن لما تُذكرنى به ومن هو ؟

فأجابني إن هذا الشاب لم يكن ساكراً ، أو مجنوناً بل هو أحد زملائك الأكثر تفوقاً منك فى الدراسة .

هذا هو الزميل الذى كلما تفوق عليك بدرجاته تتفوق عليه بالسخرية ، والمعايرة من فقره ، وملابسه هو الزميل الذى طالما عايرته بقمصانه الذائبة المُرقعة القديمة .

هل تريد أن تعلم ما الذى حدث له ، لقد أراد أن يمتلك أموالاً كثيرة ليشترى لنفسه كل الأشياء التى حُرم منها ، والتى لم تتوفر له، فتعرف على بعض الشبان في نفس عُمره ، وأخذوا يعلموه أن يعمل معهم فى جمع مخلفات القمامة ، وأنه عمل مُربح، وبدأ بالفعل العمل ، وبات يهتم بأن يمتلك الأكثر من المال ؛ فبدلاً من أن يكون المال من أجل ضبط مظهره فقد الأهتمام بهذا المظهر حيث علمه الذين علموه هذا العمل تعاطى الحبوب ، والمخدرات،

وكان سبب الإقناع فى بادئ الأمر أنها حبوب ستعطيه القدرة على العمل لفترات أطول مما يجعله سيحصل على مبالغ أكثر من المال .

فكر في بداية تعاطيه هذه الحبوب أنه سوف يتوقف عند نقطة معينه حين يحصل على ما يجعله يعود بفخر وبصورة لا يسخر أحد منها ، ولكنه لم يعود من هناك حتى الآن .

والحقيقة أن نفسه ضعيفة ، وأنه إختار هذا الإختيار الخاطئ بإرادته ، ولكن أنت قد ساهمت فى هذا الإختيار؛ فلقد ضغطت على نفسه الضعيفة ، وحمّلته ما لم يحتمل ، وكنت تظن أن قميصك الجديد السليم يعطيك الحق أن تهزأ من قميصه القديم الممزق ، وأن جودة حالتك المادية تعطيك نفس الحق .

وكم من قصةٍ آخرى يا دكتور أسامه شركس ؟

وكم جريمةٍ يصنعها الأنسان ، أو يساهم فى صُنعها دون أن يشعر ، أو يعطي لنفسه الفرصة ليشعر ، أو يُفكر ؟

لم آتِ لأضغط عليك ، أو لأذكرك بهذه القصص ، لأحملك أحمالاً ترى أنه لا ذنب لك فيها ؛ ولكن لتُحسِن الإختيار .

يا دكتور أنت الآن تقف مُتردداً فى أمرين ، وأختيارين .

وأنـا كمـا أوضحـت لـك سـابقاً مـا وضعـت داخلـك إلا لأزيـل التـردد، وأوضـح الأمـور ، ولـك حريـة الأختيـار ، وتحمـل نتيجتهـا ، ومـا أنـا إلا شـاهدٌ عليـك .

الأختيـار الأول هـو أن تعـود لتتابـع أبحاثـك التـى سـوف يدونهـا التاريـخ بإسـمك لتعطيـك البقـاء ، والخلـود .

ولكـن هـل سـألت نفسـك سـؤالاً هامـاً ، ألا وهـو مـن الـذى سـيقراء مـا دونـه التاريـخ عنـك ، وعـن أبحاثـك ، هـذا وإن نجحـت تلـك الأبحـاث.

وأن مـن سـيقرأ هـذا ، ويهتـم بـه هـم الأطبـاء فقـط ، بـل هـم أطبـاء نفـس التخصـص ، وحينهـا سـيكون الخلـود الـذى تنشُـده ، والبقـاء هـو بقـاء جزئـى ؛ فسـوف يقـف عنـد مجموعـة مـن النـاس ، وعـدد لا يتخطـاه ، وسـوف أكررهـا لـك مـرةً آخـرى « هـذا وإن نجحـت الأبحـاث»

والأختيـار الثانـى أن تُكمـل ، وتسـتمر فيمـا بـدأت فيـه مـن عمـل بسـيط أسـعد مجموعـة مـن غيـر القادريـن ، وهـذه المجموعـة فقـط حتـى الآن يفـوق عددهـا عـدد الأطبـاء الذيـن سـوف يهتمـون أن يذكـروا اسـمُكَ .

هـذه المجموعـة مـن الغيـر قادريـن علـى التكلفـة أسـتطاعت طفلـةً واحـدة منهـم أن تجعلـك تـرى الجنـة ، وتعـرف قيمـة الخلـود فيهـا .

إعلم يا دكتور إنى صديقك ، وإنى أريد لك الخير ، والسلام.

لذلـك أنـا لـم أنصحـك بتـرك أبحاثـك ، وأيضـاً لـم أنصحـك بتـرك الفقـراء ، ولكـن نصيحتـى هـى أن تفعـل هـذه، وتلـك وبـأن تعـطِ الوقـت الأكبـر للمحتاجـين ، وتابـع أبحاثـك شـيئاً فشـئ .

ودعنـي أذكـرك أنـه كلمـا زادت حـالات الكشـف ، والمعالجـة زادت خبرتـك ، ومواجهتـك لأمـور جديـدة ممـا يمكنـه أنـه يُسـاهم بنصيـب كبيـر فـى إنهـاء بحثـك ، ويسـاعدك فـى الوصـول لمـا تريـد .

أخـر مـا أريـد أن أقولـه لـك تابـع مـا تعملـه بحـب ، وقـدم الحـب فـى كل شـئ ، وسـتجد الحـب ، وسـيقوّم الحـب خطواتـك ، ويعطيـك السـلام .

وسـتجد بعدهـا أن كل أحلامـك أغنيـات ، وترانيـم ، وسـتجد أن الزهـور تنبـت أينمـا وُضِعَـت قدمـك ، وسـتجد أنـك تعيـش حيـوات آخـرى فـى قلـوب النـاس ، وفـى قلـب التاريـخ، والعالـم بأسـره .

حينمـا وضعنـى اللّه داخلـك أمرنـى أن أحبـك ؛ فكنـت أحبـك، ومازلـت ، بالرغـم مـن كل مـا رأيتـه منـك مـن تصرفـات ، ولكنـى أشـهدُ إنـك ، وكل إنسـان داخلـه شـئٍ جميـل ، ولكـن فيكـم مـن ينتبـه ، وفيكـم مـن لا يهتـم .

وأنـا سـعيد جـداً بـل يملأنـى كل السـرور بأنـك قـد إسـتمعت لكلماتـى أخيـراً .

والآن سـأتركك ، وأعـود حيـث كنـت في أعماقـك ، وأتـرك لـك التحيـة ، والسـلام إلـى أن تحتاجنـى ، وسـوف تجدنـى مـن جديـد ، وأنـا دائمـاً إلـى جـوارك متـى تطلبنـى ، أو تحتـاج إلـىَّ كل مـا عليـك عملـه لتجدنـي هـو ان تخلـوا بنفسـك فقـط .

أعـدد قهوتـك وأجلـس علـى كرسـيك الهـزار وأصمـت وأعطنـي بعـض الوقـت لأتكلـم وسـوف تجدنـي كلمـا أردت ان تجدنـي فانـا قريـبٌ منـك ؛ بـل أنـا إلـى جـوارك دائمـاً لا أغفـوا ولا أنـام فانـا كمـا قولـت لـك سـابقاً العنصـر اليقـظ في الأنسـان النائـم وأنـا أيضـاً العنصـر اليقـظ في الانسـان اليقـظ .

●●●

| الفهرس | الصفحة |
|---|---|


إهداء:..... ٥

المقدمة:..... ٧

الشجرة الجميلة:..... ١١

سقط كل شيء:..... ٢٥

ساميه شركس:..... ٣٩

الزهايمر:..... ٥٣

البهلول:..... ٦٥

عالم آخر:..... ٧٧

الخلود:..... ٩١

الإختيار:..... ١٠٣

أنا وهو:..... ١١٣

أكمل حديثه وأعطاني الحل:..... ١٢٣

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر